

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

عمالقة الشمال

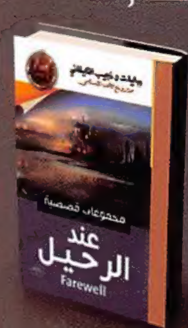
Giants of North

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا









دار الصحوة للنشر والتوزيع
5عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
0020223937716
0020223937767 تليفاكس
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

روايات إسلامية معاصرة

عمالقة الشمال

د. نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٤هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع: ٢٠٣٣٢/٢٠١٢

الترقيم الدولي:

978-977-255-368-6



للنشر والتوزيع

٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

شخصيات الرواية

١ - عثمان أمينو .

٢- نور .

٣- جاماكا- ممرضة .

٤ - الشيخ عبد الله - أحد مشايخ الطريقة القادرية .

٥ - عبد الرحيم - رفيق عثمان فى رحلاته إلى لاجوس والإيبو . . وفى الحرب .

٦ - الأب توم - مبشر إنجليزى يعيش فى إحدى قرى الايبو . .

٧- مدام علية - صاحبة فندق فى الحى العربى فى لاجوس

شخصيات ثانوية:

أ- قائد السجن .

ب- زعماء بعض القرى .

جـ- ضباط .

د- عسكر .

هـ- مواطنون- تجار- خدم . . . إلخ

و- هانيمان «طبيب مستشفى تبشيرى»

قادة:

أ- أحمدو بيللو .

ب- إيرونسى .

جـ- أوجركو .

هـ- تشوكوما .

مكان الرواية

- دولة نيجيريا الاتحادية .

زمن الرواية

- الفترة من عام ١٩٦٥ حتى ١٩٧٠م.

●●●

١

اسمى «عثمان أمنو» انحدرت من قبائل «الفولانى» فى شمال نيجيريا، يقال إن قبائلنا قد أتت مهاجرة من صعيد مصر فى قديم الزمان، وقد كانت لنا حروب وغزوات وممالك فى أجزاء كثيرة من إفريقيا، وفى نهاية القرن الثامن عشر ظهر لنا زعيم مشهور فى التاريخ اسمه «عثمان دان فوديو»، استطاع أن يوحد قبائلنا، ويجعل لها جيشًا جبارًا تخفق فوقه ألوية الإسلام.. وهكذا حكمنا إمارات كثيرة منها سوكوتو وكانو ويورنو.. قبر «عثمان دان فوديو» ما زال حتى الآن فى مدينة سوكوتو.. لعل أبى سمانى باسم عثمان تيمنًا بهذا القائد العالم المسلم العظيم..

والمدن عندنا فى شمال نيجيريا تنقسم إلى قسمين، القسم القديم وفيه تسيطر التقاليد الإسلامية، والآداب المرعية، ويلتزم الناس رجالاً ونساء بأخلاقيات لا تسمح بالانحراف والتحلل، أما القسم الآخر للمدينة فهو الأحياء الجديدة، ونطلق عليها بلغتنا «سابون

غرى» أى المدينة الجديدة، وفيها يقيم الأجانب، وتنتشر الملاهى، وتتوارى فى شوارعها- والعياذ بالله- بيوت الدعارة والعبث وحانات الشراب. . فالمدينة كما يقول أحد الفسقة قسمة بين الله والشيطان.

والبيت الذى أسكن فيه فى الحى القديم على الطراز العربى المعروف، وهو عبارة عن ساحة واسعة تتوسط البيت، تحيط بها الحجرات. . النساء محجبات. . أتقن اللغة العربية. . لغة الدين فنحن نؤمن بقداسة اللغة العربية، ونعتقد أنها جزء لا يتجزأ من الإسلام، وأعرف أيضًا لغة «الهوسا» وهى لغة التجارة والتعامل، وأستطيع أن أتحدث الإنجليزية بطلاقة؛ لأن هذا ضرورة لابد منها فى ظل الاستعمار الإنجليزى ونظمه، كما أعرف التكلم بلغة «الأيبو» وهى لغة قبائل الشرق، وأعرف لغة «اليوروبا» قبائل الغرب. . كان لا بد من ذلك إذ أنى ابن تاجر كبير كثير الأسفار، عشت فى رحاب الصوفية وخاصة الطريقة «القادرية». . وفى مدينة «كانو» و«سوكوتو» نشاط ثقافى دينى مشهور. . أنا - كما يقولون - أحد الدعاة إلى الله. . والطريق إلى الله محفوف بالأشواك والأخطار فى أيامنا تلك. . كل ما يجرى على أرضنا يجعل الأمر مهمة صعبة. . لم أتزوج بعد. .

لماذا؟

قد يظن البعض أن عدم زواجى حتى الآن سببه أننى أريد أن أتفرغ للعبادة والدعوة. . لا. . دعنى أعترف. . إن الدماء الحارة فى عروقى تلهب جسدى، والزواج نصف الدين. .

الزواج نداء الفطرة فى أعماقى . . عدم زواجى له قصة غريبة قد تتعارض مع كونى رجل دين . . لكنى أكره الزيف والخداع . . سأقول الحقيقة .

دهشت عند سماعى لكلماته واستطرد . .

- «جاءنى صديق ذات يوم ، وقال : «تعال لنمرح فى الأحياء الجديدة فى المدينة» .

- «حاشا لله . . أأخوض فى تلك المستنقعات الآسنة؟ . . » .

فهقه ساخراً :

- ««عثمان أمينو» . . من لا يعرف الشيطان لا يعرف الله . . » .

- وكيف؟

- «خبرنى كيف تقاوم الأمراض دون أن تخالط المرضى تعرف ما يشكون من آلام؟» .

كنت أعرف أن التجول فى «سابون غرى» مدعاة للشبهة وسوء السمعة ولقد علمنى أبى . . أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وأن الاقتراب من بيت موبوء قد يلحق بى عدوى المرض ، ويوقعنى فى متاهات الشرور والآثام ، لكن دافعًا داخليًا يحرضنى على الذهاب ، وصوت خافت فى وجدانى يصرخ بى : «اذهب . . تعلم . . يجب أن تعرف الحياة بكل جوانبها . . » .

ولاحظ صديقى «نور» ما أعانيه من حيرة وتمزق فيهتف صديقى «نور»:

- «لا قيمة لعفتك ما لم تكن صامداً في وجه الإغراء . . إنك لم تر الإثم ومن ثم فأنت تفتقد لذة الصراع . . ».

همست:

- «أنا أعرفك . . ».

هز كتفيه فى استهتار، وقال:

- «أنا أشرب . . وأعاشر النساء . . وأقضى أوقاتًا ممتعة فى السينما . . الجميع يعرفون ذلك . . ».

قلت وأنا أفر:

- «وأنا لا أتبع شيطانًا . . ».

ضحك «نور» فى وداعة، وأمسك بذراعى عاتبًا والابتسامة تضيء وجهه الأسمر:

- «قد تتحقق هدايتى على يديك . . ».

نظرت إلى وجهه الأسمر الحزين وعينيه الشاردتين، وسكت، بينما استطرد هو قائلاً:

- «أتخاف؟».

ووجدتنى أقول فى ثقة لا حد لها :

- «سآتى معك . . ».

القلب الشجاع لا يرهب مواجهة الواقع، والإيمان القوى لا يأنف من مخالطة المجذومين والمعذبين والمنحرفين، الهروب رذيلة، ولاجدوى من الإصلاح إن لم أواجه الواقع، كانت رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى تدق آلات الطرب، وتجالس السكارى والسمار والندمان، وتغنى وترقص، ومن قلب النار المجنونة الحارقة خرجت . . كأطهر ما تكون الأنثى . . وأحبت الله . . وعاشت لمجد الإيمان والحقيقة . . وكانت امرأة . . وانتصرت على كل وساوس النفس . وبريق الذهب، ودنيا المتعة والنعيم والمرح . . اختارت لقلبها أفراحًا من نوع جديد . .

- «سآتى معك بكل تأكيد . . ».

الطريق إلى الأحياء الجيدة ممتلئ بالأكواخ والقاذورات، وبعض الإبل قادمة من الجنوب فى تراخ وكسل بعد أن طال بها الطريق، وقطعان الأغنام يدفعها الرعاة الفقراء إلى الحظائر فى أطراف الحى القديم، ورائحة الجلد المدبوغ تزكم الأنوف، وخليط من أصوات الحيوانات يتردد فى الأنحاء وما أن عبرنا المنفذ إلى الأحياء الجديدة حتى تغير كل شىء . . الشوارع نظيفة مرصوفة، العربات الأنيقة، والسيارات الجميلة تدلف فى هدوء والمصابيح الكهربائية تضىء

الطريق . والمبانى الفخمة ذات الرونق والبهاء تشمخ بهاماتها صوب السماء فى كبرياء وعزة ، والسائرون فى الطريق العام أغلبهم يرتدى الزى المزركش الذى يشبه الجلباب- وعلى الرؤوس الطواقى ، عيب كبير أن يسير المواطن النيجيرى فى الشمال دون طاقية . . بعض النسوة الإفرنجيات يمضين دون حياء . . وبعض الإفريقيات يقلدنهن . . «أستغفر الله» . . وأغمضت عينى خجلاً . . لم أعد أرى إلا مواطئ قدمى ، ولكزنى صديقى «نور» قائلاً :

- «إذا لم ترفع نظرك فقد تصطدم بإحداهن وتمس يدك لحمها . . » .

وضحك ، بينما شعرت أنا بقشعريرة تسرى فى بدنى ، وتساءلت بين وبين نفسى قائلاً : «كيف نقاوم هذا الفساد كله؟» ، وفى المدينة القديمة لا يدخن الناس السجائر ، ولا يشربون الخمر ، وهنا أرى الناس ينفثون الدخان دى تحجج . . لا شك أن هؤلاء الناس لا يعرفون شيئًا عن الله . . ولا يؤمنون بالآخرة . . ولا يرهبون يوم الحساب . . وعلى الرغم من أننا فى عز الصيف ، والجو حار بعض الشىء ، إلا أن السماء كانت تمطر خفيفًا . . وقال «نور» :

- «لشد ما أحب المطر . . » .

قلت وأنا أحوقل وأبسمل :

- «السماء تبكى خطايا التعساء . .» .

قهقه «نور» ، وقال :

- «السماء لا شأن لها بالبشر . . لا تفرح ولا تحزن . . نحن الذين نتعرض لموجات الحزن ، أو هزات الفرح . .» .

- «كل واحد منا يرى ما لا يراه الآخر . .» .

- «كلانا يرى المطر . .» .

- «لكن تفسيرنا يختلف يا «نور» . .» .

- «التفسير هو منطقة الخلاف دائمًا . .» .

وفى المدينة الجديدة عشرات من الكنائس ، وليس فيها مسجد واحد ، الأجراس تدق ، والقباب ذات الصلبان تضيء ، برغم ضآلة عدد المسيحين . . والمستشفيات كلها أقامها المبشرون . . إنه وضع غريب ، المستشفيات عمل رائع . . لكن للأسف . . المسلمون يقفون فى آخر الصف ، ويعاملون أسوأ معاملة ، أما الوثنيون والمسيحيون فيقابلون بكل احترام وترحيب ، لماذا؟ أهذا ما أمر به الدين ، أو تدعو إليه المبادئ الإنسانية؟ لهذا ولأسباب كثيرة أكره التبشير والمبشرين من رجال الكنيسة .

همس «نور» :

- «فيم تفكر؟» .

- «في الدنيا . . » .

- «ألا تفكر في قضاء ساعتين في السينما؟» .

قلت مستنكرًا :

- «مستحيل . . » .

- «لماذا؟» .

- «دخلتها مرة . . وخرجت منها حيوانًا . . » .

ضحك «نور» حتى كاد يستلقي على قفاه ، وقال :

- «إنها نبع لذيذ للمعرفة . . » .

- «أتسمي هذه الإثارة والمفاسد معرفة؟ ! » .

- «فما هي المعرفة إذن يا معلم عثمان؟» .

- «هي ما يصلح النفس ويقومها . . » .

- «هذا جانب واحد . . ومن لا يعرف الشر يقع فيه . . » .

كانت كلمات «نور» على جانب كبير من الصواب ، لكن خوفًا غريزيًا يجرني دائمًا إلى الوراء ، يكبح انطلاقي صوب مغامرات المعرفة ، هناك أنواع من المعرفة أخاف منها . . بل أكرهها . . وقال «نور» :

- «إن فى السينما الليلة قصة تاريخية ممتعة . . دارت أحداثها فى إنجلترا منذ مئات السنين . . » .

ووجدتنى أقول :

- «حسنًا فلندخل . . » .

كانت القاعة مظلمة تمامًا ، ولا يضيء فى جنباتها إلا الشاشة ، موسيقى . . وأشباح تتحرك . . نساء جميلات يبتسمن ، ورجال ذوو أناقة وشعور مستعارة ، وسيوف معلقة فى الخصور ، ومائدة مستديرة ، وزوجات خمر . . وأرشدنا أحد العاملين فى السينما إلى أماكننا ، لم أستطع أن أرى أحدًا من الرواد إلا بعد فترة . . لا شك أن المصادفة وحدها هى التى جعلتها تجلس إلى جوارى . . لم أرها إلا فى الاستراحة بين الفيلمين . . كانت سمراء فاتنة ، ذات عيون مكحولة . . الحقيقة أننى ارتجفت عندما رأيتها . . وكم كانت دهشتى عندما رأيت صديقى «نور» يجاذبها أطراف الحديث . .

- «هل تعرفها؟» .

همست لـ «نور» الذى قال :

- «إنها ممرضة بمستشفى قريب . . كثيراً ما استقبلتنى وأنا سكران . . أنا زبون مستديم . . لكنى أقسم لك أننى تركت الخمر منذ شهور . . » .

أصابنى ارتباك شديد، وعزمت أن أترك مكانى، وطلبت من «نور» أن نتبادل المقاعد.

- «لماذا؟ إن تصرفك غريب يا عثمان؟».

- «هذه رغبتى..».

وابتسمت، وعاد الظلام وبدأت السينما عرضها، لكن ابتسامتها ظلت عالقة بخيالى، وحاولت أن أستغفر الله، وأستعيذ من الشيطان الرجيم، وألعن المصادفة التى قذفت بى إلى هذا المكان، وألعن «نور»، لكن هذا كله لم يمح صورتها من خيالى، ولم أعد أرى على الشاشة سواها..

وتسللت فى هدوء.. تركت القاعة دون أن يشعر بى «نور»، وانطلقت إلى الشارع الواسع الذى بللته قطرات المطر، وجعلته لامعًا جذابًا، كنت أجرى وألهث، وقصدت أقرب مسجد فى المدينة القديمة.. وأخذت أصلى.. وأصلى.. وأقرأ القرآن، وأذرف الدموع.. قد تسألنى لماذا لم أتزوج؟

لا شك أن «جاماكا»- وهذا اسم المرضة- هى السبب.. لأنى لو التقيت بفتاة مثلها منذ سنين لتزوجتها على الفور.. لكنى لم أكن قد وجدت الفتاة التى تجعلنى أفكر فى الزواج قبلها..

●●●

٢

كان فراري- كما علمت - مادة مسلية «للجاماكا» و «نور»، وأخذا يتبادلان التعليقات عني ومن خلال الحديث والتعليقات عرفت عني كل شيء، وقال «نور» إنه برغم هروبك إلا أنها أبدت كثيراً من الاهتمام بك، وأكثرت من الأسئلة عنك، وبدا لي الأمر تافهًا لا قيمة له، إذ إن اهتمامها لن يعدو جانب الطرافة والغرابة.. كنت أعيش في بيتي وحيدًا بعد أن رحل أبي إلى الدار الآخرة، وبعد أن تبعته أمي بعد شهور.. مات أبي سعيدًا كأقصى ما تكون السعادة، نظر إلى عند الموت بعينين دامعتين تشعان إيمانًا نبيلاً، وغمغم:

- «ها أنت ترى يا ولدي أن كل شيء إلى زوال، وفي يوم من الأيام لا بد أن نودع الدنيا.. والمال.. والأحباب.. ونذهب إلى الحبيب الأعظم لنعيش في رحابه.. أيمكن أن يضحي عاقل بأخراه من أجل دنياه الفانية.. فلتملأ قلبك باليقين.. وعش دائمًا لله..».

ونام أبى هادئًا . . شاحب الوجه . . ولحيته البيضاء كانت تقطر صفاء . . احتبست أنفاسه اللاهثة فجأة . . ثم مات . . وكانت كلمات أبى الصادقة تتغلغل آنذاك إلى أعماق نفسى ، وترعش قلبى ، كانت بسيطة قوية مؤثرة . . ويومها صغرت الدنيا بكل ضخامها فى عينى . . إن كل شىء إلى زوال . . فلا معنى لأن يسقط الإنسان المؤمن صريع البريق والإغراء . . والغنىّ من هانت فى عينيه الدنيا ولم تستعبده أموالها وجاهها . . وبعدها تكررت رحلاتى إلى الله . . وكنت أخرج فى خضم القبائل الوثنية داعيًا إلى الإيمان . . أسلم على يدى خلق كثير . . كانت سعادتى برجل يؤمن أعظم من كسب آلاف الجنيهات ، والحصول على كومة من الذهب . . لكن رؤيتى «لجاماكا» أثار فى نفسى خواطر غريبة . . العيون المكحولة لم تفارقنى حتى فى منامى ، رأيتها تخطر فى رداء أبيض . . ووجهها الأسمر الفاتن يذكرنى بالنسوة المؤمنات وهن يطفن حول الكعبة . . وأنا زرت بيت الله الحرام فى حياتى مرتين . . كان طيف «جاماكا» يطاردنى فى إلحاح . . وكنت أستريح لخيالها برغم خوفى الشديد ، وزاد ارتباكى وخوفى فأسرعت إلى شيخى الكبير «عبد الله» قلت له :

- «سيدى وإمامى . . فى القلب حاجات وفيك فطانة . . » .

ابتسم مسبل الجفنين ، وهمس :

- «أى عثمان . . أشواق الإنسان لا نهاية لها . . » .

- «أشواق منحرفة يا مولاى . . » .

- «ما دامت قد عرفتها فلا تخشها . . أعطيت لها الصادق من الصفات ففيم الخوف والشتات؟»

قلت فى قوة :

- «أجل . . أشواق . . لكن لها صفة الانحراف . . » .

هز الشيخ عبد الله رأسه، وقال :

- «اخلع نعليك . . وانزع طاقيتك . . وانظر إلى السماء واهتف سبحان الله . . والحمد لله، ولا إله إلا الله . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . » .

وكانت كلمات شيخى أمرًا لا يرد . . خرجت قبيل الفجر حافيًا عارى الرأس، وأضرع إلى الله . . شعرت ببرد الراحة ينكسب بين ضلوعى . . الانتظار على نوازع النفس معركة مقدسة . .

وعدت إلى بيتى بعد الصلاة . . لقد جاء «نور»، كان يعانى من مشكلة البطالة فقد طرده صاحب المحل الكبير فى المدينة الجديدة . . لكنه لم يكن تعسًا، ومع ذلك فإن القلق كان باديًا على وجهه، لم يعطنى الفرصة لأعلق على وضعه، بل سبقنى بالقول :

- «ليست هذه المرة الأولى. . لقد فصلت من عملى الحكومى مرتين وطردت من مصانع الزيوت فى الشرق. . ولم أستطع أن أقضى أكثر من عام فى المناجم. . إننى لا أطيق البقاء فى مكان واحد فترة طويلة. . ومع ذلك فلن أموت جوعًا. .».

وفكرت فى أمر «نور» أنا أعرف جيدًا نواحى النقص فيه، لكنى آمل أن تنصلح حاله، من يدرى؟ ألم يمتنع عن شرب الخمر، ووجدتنى أقول له:

- «أنا راحل إلى الجنوب. . ولدى قطيع من الأغنام تعاقدت على بيعه. . فى الإمكان أن تصحبنى فى هذه الرحلة، وسوف أدفع لك أجرك. .».

ضحك «نور» وبدا سعيدًا منشرحًا، وتمتم:

- «أريد جوادًا. . ومسدسًا. . وملابس رعاة البقر التى أراها فى الأفلام الأمريكية. .».

وجزعت عند سماعى لكلمة «الأفلام»، لقد أعادت إلىّ صورة العينين المكحولتين، والوجه الأسمر الفاتن. . «جاماكا». . وارتعدت فرائصى.

- «بالله يا «نور». . لا تعد تذكرها هذا الأمر. .».

قال فى استهتار:

- «المعونة لم تكف عن السؤال عنك. .».

قلت فى انبهار:

- «لماذا؟».

- «تقول إنها ملّت الذين يترامون تحت أقدامها. .».

- «وأنا؟».

- «أنت الوحيد الذى تركها خلف ظهره وانصرف. .».

- «ما معنى ذلك؟».

قهقه «نور»، ورمانى بنظرات مرحة، وقال:

- «معناه الحب. .».

دارت رأسى، كانت الحجرة خافتة الضوء، تراقصت الظلال على الجدران، الشياطين ترقص، وتخرج ألسنة من لهب أحمر، وموسيقى إفريقية صاخبة تدق، وما زال رأسى يدور، وهى - خيل إلى أنها ترقص حول نار مجوسية والجواهر المعلقة فى جيدها وخصرها تبعث نغمًا مجنونًا وهى ترتطم، وصرخت:

- «مستحيل. .».

قال «نور»:

- «لماذا؟ هل الحب حرام. .».

- «أنا أرفض هذا السقوط . . » .

- «أنت لا تملك مشاعرها . . » .

- «بل أملك أن أدوس طيشها بحذائى . . » .

رمانى بطرف عينه ، وقال :

- «ربما أمسكت بحذائك وقبلته . . » .

كدت أجن ، بدت لى فلسفته العابثة كقوة رهيبة تحاصر فكرى ، وتسخر من أفكارى ، هتفت :

- «أنا لا أتزوج من وثنية . . هذا محرم شرعًا . . » .

عاد «نور» إلى ابتسامته الماكرة ، وقال :

- «نحن لا نتحدث عن الزواج . . ثم أنها قد اعتنقت المسيحية على أيدى المبشرين فى قبائل الأيبو . . وتلقت على أيديهم دروس التمريض . . » .

طأطأت رأسى ، وقلت :

- «بعد يومين سنرحل إلى الجنوب . . ستستغرق الرحلة حوالى شهرين . . سنبيع الأغنام ونشترى بضائع أخرى . . وفى الطريق سندعو الوثنيين إلى الله . . أنا داعية للإسلام قبل أن أكون تاجرًا . . » .

وقال «نور»:

- «رحلة ممتعة لا شك.. أنا فى هذه الدنيا عابر سبيل أقطع الطريق قهراً.. أمضى حيثما أجد لقمة العيش، لا أسد أذنى عن سماع شىء.. وأهتبل الفرصة، ولا أحرم نفسى من لذة.. فقد لا تتوفر لى إلا مرة.. أمضى على الهامش دون ضجيج.. أرقص مع الأيبو.. وأغنى مع اليوروبا..

وأراقص المسيحيات.. وأغوص فى مستنقعات المنطقة الشرقية.. وأتوه فى ظلام الغابات.. لا أخاف الموت.



٣

أنا أؤمن بالمعجزات، ولا أدهش لرؤية العجائب والمفارقات، فالله قادر على كل شيء، ونحن لا نعرف عن الكون إلا القشور، جوهر الأشياء غائص فى أغلفة كثيرة من الظلام ولا يراها إلا أصحاب البصائر الأطهار..

حينما رأيت «جاماكا» تقف ببابى دق قلبى من الرعب، ولم أستطع أن أنطق بكلمة ترحيب واحدة.. إلا بعد وقت ليس بالقصير..

وأنا ينقصنى الحزم فى بعض الأحيان. هذه نقطة بارزة وأنا واثق أن الذين يعوزهم الحزم يضيعون كثيراً من الفرص. ويجلبون على أنفسهم خسائر كان فى الإمكان تجنبها، هل ذلك يعنى أننى ضعيف الإرادة أم أنه ضرب من الخجل؟

قالت «جاماكا» فى براءة:

- «ليس من المعقول أن أظل واقفة ببابك».

- «لكن ليس فى الدار أحد . . » .

نظرت إلىّ طويلاً نظرة عتاب :

- «ولكنك فيها . . » .

- «أعنى أن من غير اللائق أن أستقبل امرأة فى بيتى . . » .

همست فى إصرار :

- «سوف أدخل» .

صرخت فى جنون :

- «فى الداخل شيطان» .

ابتسمت قائلة :

- «أترهب الشياطين؟؟» .

- «لا تضيعى الوقت . . » .

قالت وهى تدلف فى إصرار :

- «لست بائعة هوى» .

باحة البيت يغمرها الضوء الساطع ، وأشعة الشمس تعرى كل شىء ، وعندما رأيتها تنظر صوب الغرفة القريبة ؛ أسرعت باستحضار مقعدين .

الضوء الباهر يصرع نوازع الشر، هذا ما أفهمه، الأمر بدا لى لا يصدق، ماذا جرى، بالأمس ليس هناك سوى لقاء صنعته المصادفة البحتة فى إحدى دور السينما، كلمات تافهة من صديقى «نور» ليس وراءها سوى العبث، مجرد كلمات إعجاب من «جاماكا»، آلاف الوجوه يلتقى بها الإنسان، ولا تخلف وراءها شيئًا نحن نسير فى الدنيا كالمخدرين، لكن مشهدًا معينًا قد يرسخ فى النفس لا يفارقها.

همس «جاماكا»:

- «شىء ما يشدنى إليك».

قلت فى شىء من الجفاء:

- «ألهذا جئت؟».

انحنت قليلاً وأردفت:

- «ألا تعرف ما الذى يحرك الإنسان؟».

- «ماذا؟».

- «رغبات مبهمة.. قد نسميها مشاعر.. قد لا تجد لها اسمًا مناسبًا.. المهم أننى أردت أن أراك..».

- «ألا يمكن أن يكون ذلك غير ذى أهمية».

هزت كتفيها قائلة:

- «ربما..».

ثم استطردت: «ومع ذلك، فأنا قد تعودت أن أستجيب لما يعتمل فى داخلى، فى غابات الجنوب كنت أنا صبية أجرى عارية.. لم أكن أجد غريبًا يفد إلينا إلا وأهرول إليه.. ويوم أن عملت كخادمة لدى بعض الراهبات شعرت بسعادة قصوى، كانت حياتهم غريبة وأفكارهم أغرب.. وعاداتهم تدعو إلى الدهشة.. وكنت مزهوة وأنا أنطق ببعض كلمات الإنجليزية.. وتعلمت الكثير من عاداتهم ولغتهم، واستطعت ببراعة أن أتعلم مهنة التمريض.. كنت أرحب بأى مكان يبعثون بى إليه.. تمنيت أن أقطع البلاد شرقًا وغربًا.. ووجدت راحة كبرى هنا فى الشمال.. الجو جميل.. والناس نظماء.. وليس عندكم ذباب «التسى تسى» ولا الثعابين أو الحيوانات المتوحشة.. ولا يأكل الإنسان لحم أخيه الإنسان..».

وسادت فترة صمت لم أعرف خلالها كيف أحادثها، وأدركت هى ما يسودنى من ارتباك وخوف، وقالت:

- «علمت أنك من رجال الله..».

- «لا أملك سوى النصيحة والكلمة الطيبة..».

- «ورجال الله -كما أعلم- لا يغلقون أبوابهم فى وجه أحد..».

- «أجل . . غير أن الأمر يختلف الآن . . » .

- «لماذا؟» .

- «يوجد الآن رجل وامرأة واحدة . . » .

- «فليكن» .

- «وإذا اجتمعا كان ثالثهما الشيطان» .

ضحكت «جاماكا» لشد ما أخاف النظر إلى عينيها المكحولتين ، تصورتها عارية تجرى فى الغابات ، وتقلد أصوات الوحوش ، وتنهش اللحوم الآدمية ، وتخوض فى المستنقعات . . . وتخيلتها تخدم فى مقر الراهبات وتلتقط فتات موائد السادة الإنجليز ، وتتعلم الكلمات الإنجليزية .

ثم تسقط بين ذراعى نذل . . فوقفت ، وقلت :

- «أرى أن نفترق» .

نظرت إلىّ بتحد ، وقالت ببساطة مذهلة :

- «أنت فى حاجة إلى امرأة . . » .

- «ماذا تعنين؟» .

- «أريد أن أكون لك . . » .

- «ليس هذا وقت العبث والمزاح . . » .

- «لكن الأمر بالنسبة لي يختلف . . » .

هزت رأسها ، وقد شاب وجهها الأسمر حزن مباغت وقالت :

- «فهمت . . » .

وفى لحظات كانت تتجه صوب الباب ، وتغيب وسط السائرين وأنا باق فى مكانى لا أتحرك ، تنفست الصعداء بعد قليل ، لم أجرؤ على ملاحقتها بنظراتى ، ران على قلبى حزن ثقيل ، و لا أدرى كنهه ، أعترف لم أكن صادقًا مع نفسى ، كنت أطردها وقلبى يحتضن نظراتها ، وأدفعها وأتمنى أن تبقى ، أنا مسلم وهى مسيحية ، مع ذلك فلا أرى مانعًا من الزواج ، هناك رواسب ومخاوف مبهمة تتعلق بماضيها الغامض ، ونتف من كلمات «نور» تلقى ظلالاً من الشك ، جرأتها أخافتنى شجاعتها جعلتنى أتراجع ، وفى نيجيريا الشمال ملايين الفتيات يعشن محجبات فى الحفظ والصون ، ويعبدون الله ، ويلتزمون بالفضيلة ، فلماذا لم أفكر فى واحدة منهن . . أليس من العجب أن يميل قلبى لـ«جاماكا» بالذات . . . هذا امتحان وبلاء من الله .

هرولت إلى شيخى «عبدالله» . . كان يتوضأ لصلاة الظهر وحوله الأتباع والأشياع ، وهؤلاء الدراويش يتسابقون لخدمته ويتبركون بماء وضوئه ، وهو فى شبه غيبوبة يغمغم بذكر الله . .

قلت بنبرات مرتعشة:

- «مولاى..».

صاح بأعلى صوته دون أن يفتح عينيه:

- «استغفر الله يا عثمان..».

- «مولاى..».

- «انتظر حتى تتم الصلاة..».

كانت دموعى تهطل بين الركعات والسجدات، تبلل وجهى ولحيتى السوداء الصغيرة، وبللت القطرات موضع السجود، انتهت الصلاة، وقرأنا الأوراد ، وأخذ الدراويش ينصرفون واحداً بعد الآخر وهم يصافحون الشيخ ويقبلون يده، كم كانت دهشتى عندما سمعت الشيخ يقول وهو مغمض العينين:

- «اذهب بتجارتك على الفور صوب الجنوب.. ولا تصطحب «نور» معك..».

- «مولاى.. إنه فقير مسكين..».

- «ولتعطه أجره لوجه الله..».

- «ما جئت لأمر كهذا...».

- «هذا هو الجواب.. افعل ما تؤمر..».

وأخذ يردد «يا مغيث غثنا واكشف عنا السوء»، ثم سمعته يزجرني:

- «قل معي يا عثمان.. قلها ألف مرة..».

وأخذت أردد الضراعة بقلب متعلق بالله، كنت أشعر أن سحب الخوف والغناء تنقشع رويدًا رويدًا، وأن مشاعرى ترق وتصفو، وما أن انتهينا من الورد المذكور، حتى سمعت شيخى عبد الله يقول:

- «الشيطان لا يكف عن قرع أبواب المؤمنين».

صحت وأنا أشهق باكيًا:

- «إنها امرأة يا مولاى..».

ابتسم الشيخ فى هدوء، ومسح على رأسى وظهرى، وقال:

- «يأتى الشيطان فى شكل امرأة.. وقد يظهر فى ثوب سلطان على رأسه تاج.. وقد يخطف بصرك على صور قطع من الذهب والمجوهرات.. المال شهوة.. والسلطة شهوة، والنساء شهوة.. هل فهمت؟».

طأطأت رأسى فى استحياء، وتمتمت:

- «المصيبة أن قلبى خفق لها..».

- «لن يحاسبك الله إلا على ما جنت يداك . . » .

- «فتاة منتصرة من الأيبو . . » .

عندئذ فتح الشيخ عينيه ، وتنهد ثم قال :

- «لم يعلموها من الدين إلا أن المسلمين فى النار . . وأن الرقص والشراب والإباحية هى المدنية فهى مدنية خراب . . . صنعها فكر سقيم يبغى التدمير . . الشرع يبيح زواجك منها . . لكن لا تنس أن مسلمة خير منها ولو أعجبتك . . » .

تلعثمت كثيرًا وأنا أقول :

- «ألا يجوز أن يهديها الله على يدى؟» .

- «كل شىء جائز . . الأفضل أن تطمئن لهدايتها أولاً . . » .

وشرب الشيخ جرعة ماء ، وقال :

- «كفرة أوروبا قد زرعوا فى أرضنا الفتن . . المبشرون لا يدعون إلى الله من أجل الله . . أنت تدرك معنى كلامى . . كان الأوروبيون وراء كل الفتن والدماء التى أريقت . . » .

وشرد الشيخ ثم أغمض عينيه وهتف :

- «حى . . قيوم . . علام الغيوب ، إذا نزلت يا عثمان فى أحراش اليوروبا . . وظلمات الأيبو . . فأبعث بكلمات الله فى كل مكان . .

وادع البشر هناك إلى عبادة الواحد . . وقل لهم كونوا إخوة . . وحطموا الأصنام الجديدة . . أطلق كلماتك فى الصحراء . . فى الغابات . . فى المناجم . . فى المصانع . . ولا تخش إلا الله . . وليس من المكتوب هروب . .

ولو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك بشىء لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . . » .

•••

البيت صامت ، وأمامى مصباح صغير ، وكتاب عن معالم الطريق أقرأ فيه . . ويدق ويدخل «نور» . .

– «علمت أنها جاءت إليك . . » .

نظرت إليه ، ثم قلت :

– «لن تسافر معى . . » .

أصابته دهشة مباغتة لكلماتى ، بدت على ملامح وجهه ، أدركت منها مدى اليأس الذى ملكه ، لكنى أخرجت رزمة من الأوراق المالية ، وقلت :

– «هذ أجرك . . . » .

دفعها بيده فى شىء من الغضب ، وقال :

- «يهمنى أن أعرف لماذا غيرت رأيك . . » .

- «دع هذا الأمر . . ؟» .

- «أنا غنى عن مالك . . » .

- «لكنه حقك . . » .

وعاد يرمقنى فى حيرة :

- «هل أسأت إليك؟ إن «جاماكا» مجنونة . . لقد حذرتها أكثر من مرة حتى لا تتعرض لك . . لا ذنب لى . . » .

وانصرف «نور» دون أن يأخذ شيئًا . . وأنا الآخر شعرت بمرارة قاتلة .



٤

الحديث عن السياسة قد يكون مملاً، وكثير من الناس لا يعبأ بها، غير أن لى وجهة نظر أخرى، أن الإنسان مجموعة من العواطف والأفكار، وفى قلب الإنسان تختلط مشاعر الحب والكره والعنف واللين والفن والسياسة، والدين والحياة، بل إن تصورى الذى أؤمن به أن الدين الإسلامى تفسير رائع للكون والحياة والإنسان، وحل شامل لكل المعضلات التى يعج بها الوجود.. أنا من أنصار حزب «السلاما» أو هيئة مؤتمر الشمال.. رئيس الحزب هو «أحمدو بيللو».. ومن منا لا يعرف أحمدو بيللو.. إنه أبو نيجيريا الحديثة.. الأب الروحى لجميع المسلمين.. زعيم أكبر حزب.. متواضع.. مؤمن.. وهو من سلالة ملوك «الفولانى» لم يحن رأسه للإنجليز قط.. كلنا يعرف قصته مع الأميرة «ألكسندرة» مندوبة الملكة إليزابيث فى عيد الاستقلال النيجيرى.. لقد رفض الانحناء لها.. ورفض أن يمد يده لليهود أو يقبل معوناتهم..

حزبنا أكبر حزب فى نيجيريا . . ينال الأغلبية الساحقة فى الانتخابات . . على أكتاف هذا الحزب قامت وحدة نيجيريا . . رفض أحمدو بيللو أن يكون رئيسًا للجمهورية . . اكتفى بأن يكون رئيس وزراء الشمال، أما نائبه فى الحزب فقد أصبح رئيسًا للوزارة الاتحادية التى تضم حكومات الشرق والغرب والشمال.

فى السماء صفاء غريب . . والجوار رائع . . ومع ذلك فأنا أشعر بمرارة . . أريد أن أفعل شيئًا . . عدت إلى شيخى عبد الله . . إننى بجوار هذا الرجل أشعر براحة عجيبة . . لكأنما يتدفق نبع اطمئنان مقدس من قلبه فيملأ باليقين . . وما إن وصلت إليه حتى وجدته يستعد لزيارة أحمدو بيللو . . ولم يزد على أن قال:

- «تعال معنا . . جئت فى وقتك . . وكنت سأبعث فى طلبك . . ».

لم تكن الأمور فى عاصمة الشمال على ما يرام برغم الاستقلال والوحدة الوطنية، إن الصراع دائمًا محتدم . . صراع أفكار . . لا خوف من صراع الأفكار . . أخطر العوامل المؤثرة فى هذا الصراع الحركة التبشيرية . . إنهم لا يدعون إلى الله حسب طريقتهم فحسب . . ولكن القساوسة ليسوا رجال دين هنا بالمعنى الدقيق، إنهم يتزينون بمسوح الرهبان، ويظهرون صفات التدين، لكنهم فى

الحقيقة يورثون الأحقاد، ويبثون الفرقة، ويمزقون وحدة الأمة.. إنهم لا يريدون أن يسود الحب والصفا.. معنى الوحدة الوطنية أن يفقد المستعمرون القدامى والجدد مصالحهم.. ولا أنسى أن معظم الموظفين في الشمال من «الأيبو» المسيحيين.. وكثير من ضباط الجيش.. مع أن نسبة المسلمين في الشمال ٩٨٪.. وهذا يدعو إلى الاطمئنان الجزئي..

كان مجلس أحمدو بيللو عامراً بالرجال الأخيار، كثيرون منهم ينتمون إلى الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والوهابية.. وهناك عدد من رجال السياسة.. كانت الأحاديث تطوف بشتى الموضوعات.. وعندما جاء ذكر الحالة العامة في البلاد قال أحمدو بيللو:

- «التسامح يقهر الحقد..».

رد أحد الجالسين:

- «التسامح يا مولانا لا يصل لدرجة جعل «جونسون إيرونسي» قائدًا للجيش في الشمال.. أنا أعرف أنه مسيحي متعصب، لا يؤمن جانبه.. وهو من الأيبو»...

ابتسم أحمدو بيللو وأضاء وجهه نور اليقين، وقال:

- «لا فرق بين الأيبو واليوروبا والهوسا..».

- بل هناك أحقاد كامنة . . » .

- «يجب أن نتجاهلها من أجل وحدة البلاد . . » .

- «فى ذلك يكمن خطر رهيب . . » .

هز كتفيه فى ثقة، وقال :

- «بذور الشر لا تثمر فى أرضنا . . » .

- «للشر جولات ينتصر فيها . . » .

أغمض أحمدو بيللو عينيه وتمتم بآية من القرآن :

- ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . ﴾ [المجادلة : ٢١] .

تنهد المتحدث فى ضيق، وقال :

- «إنهم يعيثون الفساد فى الشمال . . » .

- «إذا ثبت على أحدهم جرم فسنأخذه بحكم الله . . » .

- «ما أكثر الجرائم التى تحاك فى الظلام . . » .

قال أحمدو بيللو :

- «الظلام يصرع العصابات التى تعشش فيه . . » .

- «بل يسترهم ويحميهم . . » .

وعاد أحمدو بيللو يقول فى دهشة :

- «لست أدرى ماذا يريدون» .

رد شيخى «عبد الله» قائلاً:

- «الطمع».

همست:

-«أجل..».

وقال شيخى:

- «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم..».

ثم نظر إلى أحمدو بيللو قائلاً:

- «كلما نظرت إلى وجهك يا أمير المسلمين أرى ملامح شهيد يقترب من الجنة..».

أضاء وجهه الأمير، وقال فى سعادة:

- «مرحبًا .. مرحبًا.. وهذا يوم المنى..».

الحقيقة أننى شعرت بضيق بالغ، فأنا أعرف أن الأيدى الأجنبية لن تترك نيجيريا تعيش فى سلام، وفى نيجيريا ثروات هائلة، وإمكانيات ضخمة، وفيها قوة إسلامية تخيفهم، إنجلترا لها أطماع.. وأمريكا تتوثب للانقضاض، وفرنسا تأمل فى جزء من الغنيمة.. وإسرائيل تتسلل.. بل ونجحت وأصبح لها خبراء للزراعة وتجفيف المستنقعات فى الغرب.. ولها شركة إنشاء وتعمير

ضخمة اسمها «نيوجيرسال» . . كل ذلك فى الشرق والغرب . . أما الشمال فلم يزل مغلقًا فى وجهها :

وسمعت شيخى عبد الله :

- «احذروا اليهود . . إننى أراهم هنا . . » .

ضحك أحمدو بيللو ، وقال :

- «أين هم؟ لن تطأ أقدامهم أرض الشمال ما دمت على قيد الحياة . . ولسوف أحاول أن أضيق عليهم الخناق فى الجنوب بالتفاهم مع الحكومات المحلية هناك . . اليهود خطر داهم . . » .

وأردف شيخى :

- «إنهم هنا . . أراهم فى وجوه الكثيرين» .

- «تعنى أنصارهم» .

- «أجل يا أحمدو بيللو . . » .

وانتقل الأمير إلى موضوعات شتى ، أخذ يتحدث عن زيارته الأخيرة إلى مكة ، وعن لقائه مع زعماء العالم الإسلامى هناك ، وعن الأمر العجيب الذى لفت نظره ، فقد لاحظ أن قضايا العالم الإسلامى يواجهها دائمًا تكتل من قبل الأعداء . . المسلمون فى العالم لا ينصفهم أحد لماذا؟ وبلاد المسلمين هى حقول الاستنزاف والمؤامرات والتدمير ، لماذا؟ ومذابح الأقليات الإسلامية فى أماكن

شتى من العالم دون أن يتحرك ضمير أحد من الفلاسفة أو المصلحين لماذا؟

- «المشكلة ليست مشكلة نيجيريا . . ولكنها مشكلة الأمة الإسلام كلها . . لكى تبحثوا عن حل يريح نيجيريا يحب أن تنظروا إلى بيعد . . إلى الثمانمائة مليون مسلم . . القوة الجبارة التى تستطيع أن تغير وجه التاريخ . . وتعيد الحق إلى نصابه . . فيسود الصفاء العالم . . وتختنق الثعابين وينحدر الظلام . . » .

وعاد شيخى عبد الله يعلق :

- «نحن لا نفهم الإسلام كما يجب . . » .

وفجأة وقف أحمدو بيللو قائلا :

- «صدقت . . » .

وهب الجميع واقفين . وعاد أحمدو بيللو يقول :

- «اجلسوا . . » .

وأخذ يجفف العرق الذى يتصبب على جبينه الأسمر ولحيته البيضاء ، واستطرد فى انفعال :

- «التعليم الصحيح هو المخرج . . يا إلهى . . ما زلت أذكر . . عندما كنا نحاول تعليم الأطفال اللغة العربية والقرآن كان المستعمرون يفرضون علينا ضرائب باهظة . . المسلم لابد أن يغير

اسمه ليدخل المدارس التبشيرية.. المناصب لمن ينتصرون.. المدارس خاضعة للنظام التبشيري.. أى ظلم وتعصب هذا؟ ولذا قررت إنشاء العديد من المدارس والجامعات.. وسيتعلم الطالب الفيزياء والكيمياء والطب إلى جوار الفقه واللغة العربية وحفظ القرآن.. ولقد أدليت بتصريحات مثل هذه للصحف فى مكة المكرمة أثناء الحج.. أتدرون بماذا علق المعلقون على تصريحاتى؟».

وثبت من مكانى متسائلاً:

- «ماذا قالوا؟!».

- «قالوا إن أحمدو بيللو لن يعيش طويلاً..».

- «لماذا يا مولاى..».

هز رأسه فى أسى، وقال:

- «عندما يرى عدوك أنك وضعت يدك على مفتاح الباب المغلق الذى سيوصلك إلى بر الأمان والحرية والنجاح.. يفقد رشده.. يطير صوابه.. يندفع كمجنون ليقضى عليك.. لأن فرصة انتصاره سوف تضيع إلى الأبد.. إنه يغامر.. هل فهمت يا ولدى؟»

وساد صمت مقدس، العيون الوفية المخلصة ترمق الرجل العظيم الجالس على كرسى الحكم، الرجل الذى لا يرهب العدو ولا يخاف الموت ولا يهرب من مواجهة الحق، وقال شيخى «عبد الله» قاطعًا حبل الصمت المقدس:

- «نحن لا شيء بالنسبة لعظمة الله . . في حروب الردة مات المئات من العلماء وحفظة كتاب الله . . والطريق إلى الله محفوف بالمكاره . .

التحيات لمن حج واعتمر . . التحيات لمن استقرت في قلبه عقيدة التوحيد . . والتحيات للشهداء . . » .

وعند العودة إلى بيت شيخي همست :

- «شيخي . . قلبي يرتجف من الخوف» .

- «لا قيمة لذلك» .

- «وابحث عن الاطمئنان . . » .

- «ستجده » .

- «كيف؟» .

- «عندما تطلق شهوات الدنيا . . » .

- «فلا داعي للزواج إذن . . » .

ضحك الشيخ واحتقن وجه ، وقال :

- «الزواج سنة الله وليس شهوة من الشهوات . . » .

وعدت أقول :

- «الدنيا مغرية يا شيخي . . » .

- «ولهذا كانت معركة الإنسان مع نفسه..».

- «لماذا خلقها الله هكذا؟».

- «استغفر الله.. ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ..﴾ [الأنبياء: ٤٣]».

- «فكر كيف شئت يا عثمان.. لكن حذار أن تقترب من حافة الشك، أو يخالط شكرك نازغة تمرد على حكمة الله..».

- «كيف؟».

- «ثق فى عدل الله وحكمته..».

- «نعم..».

- «أنا المخلوق وهو الخالق..».

- «أجل..».

- «وشتان بين العقل.. وخالق العقل..».

- «أجل..».

- «وميدان الروح فسيح.. والبصيرة الصافية مجالات لا حدود لها..».

وانهمرت دموعى فجأة، وأخذت أنشج، وربت شيخى على رأسى، وقال فى رضى:

- «لماذا تبكى؟».

- «لأنى ضعيف . . وأخاف يوم الحساب . . » .

- «بل أنت قوى . . قوى بدموعك . . » .

- «أفى الدموع قوة؟» .

- «أجل . . دموع الندم تغسل ثوب النفس وتمحو الوساوس . . الدموع اعتراف . . الجاحدون لا يبكون» .

وهمست لشيخى :

- «أبكى كثيراً فى الليالى الطويلة . . ودخلت «جاماكا» حياتى كشيطان جميل . . هل هذا هو الحب؟» .

- «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . » .

- «ولهذا أخرجتها من حياتى . . » .

- «لماذا؟» .

- «لأن حبها طريق إلى الشرك . . » .

- «ليس تمامًا» .

- «كيف؟» .

- «من يحب الله ورسوله يستطيع أن يحب خلقه . . حبهما هو المدخل . . هو الحب الكبير الذى يظلل بأفرعه السامقة الخضراء . . كل الدنيا . . أتفهم؟ كل الدنيا . . » .

- «أشعر بالحيرة . . » .

- «العبادة يا ولدى حب . . والجهاد فى سبيل الله حب . . وتنفيذ شرائع الله حب . . هل فهمت الحب؟» .

- «فهمت أن الحب شيء غير الشهوة . . » .

- «وفى الحب الحلال قدر من الشهوة لا فكاك منها . . » .

قلت فى فرح مباغت :

- «هذا ما أردت أن أعرفه بالضبط . . » .

ضحك شيخى قائلاً :

- «ما زلت تفكر طول الوقت فى «جاماكا» . . . » .

- «لا أنكر . . » .

- «غداً . . بإذن الله . . » .

- «المعركة فى الطريق ستكون مريرة . . » .

- «سأذهب بغنمى وأعود بغنمها . . » .

- «الشهوات جنود الشيطان . . ستجدها فى كل مكان . . » .

- «يا إلهى . . العود الظاهر من السهل التغلب عليه . . » .

- وعدوك الخفى يا ولدى هو الجدير بالحرب . . .

كانت كلمات شيخى جديرة بالنظر والتفكير، وعباراته تحمل شحنات قوية مثيرة، تفتح العقل والروح، وتملأ وجودى بأريج من نوع عجيب أشعر بها ترطب كيانى وتزودنى بزاد لا ينفد فأحس بالامتلاء وروحًا وفكرًا . .

قلت فى لهفة :

- «أتدرى لماذا يشقى الإنسان فى عصرنا؟» .

- «لأنه لم يجد بعد طريقه الصحيح . . » .

- «أجل . » .

- «العذاب نابع من الشك والتردد والشعور بالضياع . » .

- «لكن هذه الحالة تنتابنى أنا الآخر فى بعض الأحيان . . » .

- نعم . . فى بعض الأحيان . . كلنا . . أنا . . أنت . . مجموعة من المواقف النفسية . . أتفهم؟ فهى مسألة نسبية إذن . . ولهذا كانت التوبة . . وكانت منازل الأبرار . . حياتنا كلها طريق طويل للتدريب . . رياضة مستمرة . . والأعمال بالنيات . . وإبراهيم قال لربه : بلى، ولكن ليطمئن قلبى . . أراد أن يرى المعجزة بعينيه . . » .

اختطفت يد شيخى وأغرقتها بالقبلات والدموع . .

***

٥

وفى صباح أحد الأيام وصلت إلى «لاجوس» عاصمة نيجيريا الاتحادية، وهى تقع على جزيرة تتصل بالشاطئ بواسطة جسر كبير، وهى مدينة تعج بالحركة والنشاط، إذ يبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة أرباع المليون، نصفهم من المسلمين، وتنقسم إلى حى قديم للزنوج وإلى أحياء أوروبية حديثة، وفيها حى للتجار العرب يعرف بالحى العربى، وفى لاجوس يختلط سماسرة السياسة والتجارة والأديان، ويمتزج الأيبو باليوروبا والهوسا، وتدق أجراس الكنائس الكبيرة، وينطلق صوت بعض المؤذنين، إننى أنظر إلى المدينة فأجد ملامحها غربية، هناك كثير من الوجوه لا تستطيع أن تميزها عن غيرها. . هكذا هى لاجوس، مدينة بلا تميز، ليس لها سمات محددة، وجوه سمراء وصفراء وبيضاء وحمراء، ورهبان وشيوخ وبحارة وعساكر، كل يبحث لنفسه عن مكان يركن إليه، وفى القديم كان الأوروبيون يطلقون على شوطئنا «ساحل العبيد». .

وكانوا يسوقون أسرًا بكاملها أمامهم كما تساق الأغنام، ويحشرونهم فى السفن القذرة، أطفالاً ونساء وشيبًا وشبابًا ويلقون بهم على شواطئ الدنيا الجديدة.. أمريكا.. عشرون مليونًا صدرتها إفريقيا لأمريكا على أيدى التجار والقراصنة الأوروبيين.. أى عذاب كان يقاسى منه هؤلاء التعساء..

واليوم حلت البضائع والمواد الخام مكان العبيد.. يصدرون البشر، واليوم يصدرون جهود البشر.. الإفريقى هنا أو فى أمريكا.. يعمل ويعمل دائمًا من أجلهم ومن أجل سماسرتهم.. ولا يجنى الإفريقى سوى القليل.. المضحك أن أوروبا حررت العبيد.. نعم، لكن لماذا؟.

التفسير الحقيقى شىء آخر غير ما يكتبه المؤرخون والمبشرون.. لقد قضت بريطانيا على سوق العبيد حتى ترتفع أجور العمال فى أمريكا، وتقل الأيدى العاملة هناك، فترتفع أسعار التكلفة.. فلا تستطيع أمريكا أن تنافس سلع أوروبا.. وكان شيخى دائمًا يقول إنما الأعمال بالنيات.. ما أسوأ نيات المستعمرين..

وأخيرًا ذهبت إلى الحى العربى.. أشعر بكثير من الاطمئنان وأنا أمضى فى طريقى إلى هذا الحى، كأنه جزء من بيتى.. وهناك فندق عتيق آوى إليه دائمًا، تمتلكه أرملة مهاجرة من إحدى البلاد العربية..

- «طاب مساؤك يا سيدة «علية» . . » .

قالت وهى تستقبلنى بابتسامة لا انفعال فيها :

- «حجرتك لحسن الحظ خالية . . إننى سعيدة برؤيتك . . » .

- «شكراً . . » .

قلتها وأنا أتناول منها المفتاح ثم استطردت :

- «هل لديك أحد من تجار الأغنام؟» .

ضحكت، وقالت :

- «عندما تنزل إلى صالة الطعام . . فستجد الصالة كالحظيرة . . » .

لوحت بسبابتى متوعداً فى مزاح :

- «لا أحب السخرية . . » .

- «بعض المزاح فى هذه الحياة الرتيبة الكئيبة . . » .

- «أما زلت ترفضين الزواج . . » .

ابتسمت قائلة :

- «سوف أتزوج عندما أرى أن طالب يدى لا ينظر إلىّ كما ينظر إلى صفقة رابحة . . » .

وهممت أن أتكلم لكنها قاطعتنى قائلة :

- «وأنت؟».

وعادت إلى الذكريات، قلت وأنا أسرع صوب السلم :

- «عندما أجد امرأة مؤمنة . . ».

هتفت فى أعقابى :

- «الحياة تجارة . . ».

- «لكنك ترفضين التجارة فى مسائل الزواج . . ».

- «بالضبط . . أرفض الطمع . . ».

ووجدتنى أعود إليها ثانية لأقول :

- «عندما يتعلق قلبك ببشر يا مدام علية . . فستذوب كل الاعتراضات . . ».

- «وأنت؟».

نظرت إلىّ فى اهتمام وشردت قليلاً، ثم قالت :

- «لو امتلأ قلبك بحب مومس، فسيكون من الصعب عليك التخلص منها . . نحن لعب صغيرة . . تافهة . . لا إرادة لها فى يد القدر . . ».

- «أتؤمنين بذلك؟».

- «بكل تأكيد..».

- «ففيم الاعتراض إذن على طالبى الزواج منك؟».

- «اللعبة لم تتم.. من يدرى؟ قد أسقطت فى يد أكبر التجار جشعًا..».

وتنهدت قائلة:

- «اذهب لتغير ملابسك.. ولتفكر أولاً فى غنمك..».

كنت- كأبى- معروفًا جدًا لدى الكثيرين من مشترى الأغنام فى «لاجوس» هذه المدينة تستهلك الكثير من اللحوم، كما تستهلك الكثير من الخمر، هنا بعض القبائل توزع الخمر فى المآتم، لا أعلم من أين أتوا بهذا التقليد الغريب، وأثناء تناول الغذاء فى الصالة الكبيرة بالفندق التقيت ببعض التجار، قال لى كبيرهم:

- «انظر.. الرجل الجالس هناك فى أقصى اليسار.. هو الذى سيشترى غنمك.. يجب أن تحذر منه، إنه مساوم من الطراز الأول..».

كان الرجل الذى أشار إليه يأكل وعيناه تتحركان فى كل اتجاه، وأمامه كأس من الويسكى، وكان يتلفت، وكأنه من عصابة لا يعرف أفرادها، فى عينيه مكر وشكوك وقوة خفية، الحقيقة أننى لم

أرتح لمنظره، وجهه المشرب بالحمرة يوحى بأنه إنجليزى، كرهته لأول وهلة، انطباع لم أستطع منه فكاكًا، لكن لماذا أبيع لهذا الشخص بالذات، قال صديقى التاجر القديم:

- «إنه نوع من التنظيم بيننا وبين المشترين. . ».

وضحك ضحكة عالية، وقال:

- «بل لعله نوع من الاحتكار. . ».

أردفت قائلاً:

- «أو التواطؤ. . ».

- «ربما. . ».

قالها وهو يهز كتفيه، فعلقت متسائلاً:

- «لِمَ كل هذا؟».

- «نحن مضطرون لذلك؟ لأن كبار المستهلكين فى المدينة لا يأخذون ما يحتاجون إليه من أغنام إلا عن طريق الوسطاء. . وهذا أحد الوسطاء. . ».

لكنى استبعدت مشاعرى الشخصية، البيع والشراء مسألة لا دخل للعواطف فيها، لقد قطعت المسافات الطويلة بقطعانى وتكبدت المشاق، واستأجرت عددًا من الحراس، وأريد أن أريح عن

كاهلي عبء هذه الصفقة الكبيرة، إن هي إلا ساعة أو بعض ساعة، وأكون قد انتهيت مما أنا بصدده، وبعد أن تناولت طعامي قصدت الرجل الجالس وحده، كان قد انتهى من طعامه وشرابه، ألقيت عليه التحية، رمقني بنظرات متفحصة، ورد التحية بفتور، لشد ما يضايقني الاستقبال الخالي من الحرارة، قال بإنجليزية غير أصيلة:

- «عرفت أنك هنا، كم رأسًا معك؟».

استغفرت الله، وأخذت أعطيه أرقام القطعان، وحالتها العامة قال بإيجاز وهو يجفف فمه بمنديل قاتم اللون:

- «بكم تبيع؟».

- «أنت المشترى..».

- «حسنًا.. لا أعرف المساومة..».

وكم كانت دهشتي عندما أخبرني بثمن بخس لم أتعود البيع به من قبل، فأبديت رفضي على الفور وأنا أكاد أصفعه، غير أني كنت متمالكًا تمامًا لأعصابي، يجب أن يكون التاجر صبورًا متسامحًا، قال وهو يزفر في ضيق:

- «لن تجد ثمنًا أكثر من ذلك..».

ووجدتني أنصرف عنه، تركت مائدته ثائرًا، وعدت أرتجف غيظًا إلى مكاني القديم، مال على التاجر الأول الذي أرشدني عنه قائلاً:

- «لا تتضايق . . » .

- «إنه غريب الشأن» .

- «هكذا دائمًا اليهود . . » .

صرخت فى دهشة :

- «أهو يهودى؟» .

- «أجل إسرائيلى محنك . . وصاحب أكبر شركة لتجارة اللحوم . . » .

قلت فى إصرار والشرر يتطاير من عينى :

- «لن أبيعها له ولو نفقت كلها وأكلتها الوحوش . . » .

- «ستجد مشقة بالغة فى بيعها . . » .

- «ليكن . . سأبيعها للجزارين» .

- «بالطبع هذا أفضل ، لكن قطعانك كثيرة ، وستبذل جهدًا كبيرًا فى المرور على الجزارين ، أنت تحتاج لأكثر من خمسين جزارًا . . » .

وخرجت إلى الشارع ، المدينة شديدة الرطوبة ، والكآبة تجثم على قلبى ، وهموم القطعان التى لا بد من بيعها تبعث الضيق فى نفسى ، وتذكرت شيخى «عبد الله» . . كثيرًا ما كان يحدثنا عن

الصبر والاعتماد على الله، وأن أرزاقنا فى السماء، وهى محسوبة بدقة، وملت على أقرب مسجد لأؤدى الفريضة، وفى المسجد شعرت ببرد اليقين، والهدوء والسلام والطمأنينة تترقرقان فى جنبات المسجد، وهناك بعض الكتب العربية القديمة، تناولت واحدًا وأخذت أقرأ بعض الأوراد والتسابيح، ثم خرجت بعد ساعة إلى الشارع . . إننى أمضى فى بلادى كالمطارد الغريب، الشعور نفسه الذى كنت أشعر به إبان الاحتلال الإنجليزى، خروج العدو لم يغير كثيرًا من مشاعرى؟ لأنى أرى أنواعًا جديدة من العبث والاستغلال والكبت، شعبى فى قبضة مارد ضخم يلعب بمصيره بطريقة غربية، الخبث هو الخطة الجديدة، والسيطرة على منافذ الاقتصاد والمال والتجارة، تشكل خطرًا واستعمارًا من نوع جديدة.

قد يكون الغريب أننى استطعت فى اليوم التالى بيع كل ما عندى من الأغنام فى خلال بضع ساعات، فقد استطاع أحد التجار العرب أن يرشدنى إلى متعهد للتغذية فى الجيش، وكان الثمن ضعف ما عرضه اليهودى.

ولاجوس فى الليل تنضح بخطايا كثيرة، ووراؤها يكمن المخطط الصهيونى، هذه أندية القمار، وتلك حانات الرقص والخمر، وهناك بيوت الدعارة، وللأسف كثير من التجار يغرقون فى خضم هذه الموبقات، وينزفون أرباحهم على مذبح الرذيلة، العدو يشترى

ويبيع، لكن كل شىء يعود إلى جيبه، والجماعات السياسية تتناحر من أجل منصب وزارى، أو الفوز بمقعد فى الانتخابات العامة، والفتن تشتعل بين المسلمين والوثنيين والمتنصرين، والأمور تدار بطريقة شيطانية خبيثة.. لشد ما كرهت «لاجوس» عاصمتى التى أتمنى أن أحبها، لكنها الآن أصبحت رمزاً للمؤامرات والاستسلام والغفلة.. والجميع ضحايا أو لعبة تافهة فى أيدى الماكرين والدهاة.

فى المساء تذكرت «جاماكا» هذه الملعونة ما زال خيالها يطاردنى، يخيل إلىّ أننى أسمع غناءها فى الحانات، وأسمع ألحانها الغجرية الصارخة وأتصورها وهى تتمايل بجوار الكؤوس وشياطين الرغبة يلعقون خديها.. وتبدو لى أنها تسخر منى، وتقول:

«انظر العالم من حولك.. الجميع يستمتعون.. ويمرحون.. ولا يفكرون فى الغد، وأنت وحدك متشبث بالطهر والعفاف، أنت تعيش على الهامش.. وليس وراء المجهول غير الموت الأبدى..».

كلماتها المتخلية ترن فى أذنى، صوتها العابث المثير يهز كيانى.. «جاماكا» هى نيجيريا الجنوب اللاهى المتمزق المنطلق فى مجال الشهوة والعربدة، الساقط بين براثن الغدر والخيبة، الذى باع نفسه للشيطان..

وفتحت حقيبتى لأبحث عن المصحف . . إنه الجرعة الشافية التى أشربها كلما تعبت الروح، وسقم القلب، وراودتنى الأحزان والأوهام، ونخر فى فؤادى الوهن واستبدت بى الهموم . . وحتى الغرب للأسف تغير كثيراً . . المسلمون فيه لا يتحدثون كثيراً غير ذلك، شيعة إيران ولبنان وسوريا وشرق إفريقيا . . كان آباؤهم غير ذلك هكذا حدثنى أبى . . كانوا يسافرون للتجارة حاملين مصاحفهم ودعوتهم إلى الله حتى هدى الله بهم خلقًا كثيراً، أما اليوم فقد تغيرت الحال، وساءت الأمور، وأصبح همهم المال والدنيا . .

قلت لأحد أصدقائى القدامى :

- «لقد نسيتم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . » .

ابتسم فى يأس، وقال :

- «ليس لدى الوعاظ وقت ليقولوا، وليس لدى السامعين وقت ليسمعوا . . » .

- «إننا نهدم بذلك ديننا . . » .

- «نحن نصلى ونصوم . . ونحتشد فى يوم الجمعة . . » .

- «الدعوة إلى الله شىء آخر . . » .

- «ماذا تعنى؟» .

- «يجب أن نمشى فى الشوارع والحوانيت والغابات . . » .

هز رأسه قائلاً:

- «هذا حق . .».

- «ففيم التقاعس؟».

تنهد فى ألم، وقال:

- «الدعاة هنا مطاردون . . إنهم يصطدمون بعقبات لا يدرى أحد من أين تنطلق، كثيرون منهم يبعدون، أو يصرعون فى الظلام، أو يحرمون من فرص الحياة، أو يطردون من الوظائف، تحت أسباب غريبة لا تمت إلى الحقيقة بصلة . . وقانا الله وإياك شر الفتن . .».

لم أنم ليلتى الأخيرة فى لاجوس كما يجب، فقد أمضنى الأرق والتفكير، وتذكرت وصايا شيخى، أحصيت ما معى من مال، وقررت أن أخوض المستنقعات والغابات داخل أرض الأيبو فى الشرق، داعيا إلى الله، قال أحد رفاقى- وقد صحبته معى لحراسة القطيع- واسمه عبد الرحيم:

- «نحن نخاطر بأنفسنا . .».

- «أعرف . .».

- «إن صوت الله يجب أن يسمع».

- «لماذا خلقنا يا عبد الرحيم؟».

- «لنعيش يا عثمان؟».

- «الدعوة إلى الله حياة.. والموت في سبيله خلود..».

- «لكننا نحمل وصايا الأنبياء..».

وشردت ببصرى إلى بعيد وأنا أردد:

- «أنا على موعد مع الجنة، حدثنى شيخى عن جنة عرضها السماوات والأرض، تجرى من تحتها الأنهار، وعن الصالحين الذين ينعمون بأروع ثواب.. برؤية الله، وأنا أرى الطريق جيداً..

ولن أرجع إلا إذا ترددت كلماتى فى جنبات الغابات وسمعها البشر فى أى موقع أنزل به..».

وهمس عبد الرحيم:

- «أنا معك وأمرى إلى الله..».

- «أما هذه يا عثمان، فلن أتقاضى عليها أجراً.. أريد أن أقدم شيئًا لوجه الله.. شتان بين رحلة التجارة ورحلة العبادة.. فلنسر على بركة الله..».

وترقرت الدموع فى عينى عبد الرحيم، فضممته إلى صدرى فى حنان، وامتزجت دموعنا.. واستأجرنا سيارة لا ندروفر، وانطلقنا إلى الشرق فى الصباح الباكر.

●●●

٦

إن اختراق الغابات الاستوائية أمر مثير للغاية، والضرب فى جنباتها يكمن فى طياته الموت، النوم فيها ملىء بالأحلام المزعجة والسير نهارًا يورث القلق، فالأشجار كثيفة، وبعضها عال جدًا، قد يصل ارتفاعها إلى ستين مترًا، وتبدو الأشجار المتلاحمة العالية على شكل عدة طبقات، وهناك أشجار تلتف على بعضها وتتسامى طلبًا للنور، فتصبح ذات جذوع ضئيلة بالنسبة لفروعها الكثيرة المتشابكة، والجذور تضرب فى باطن الأرض إلى أعماق بعيدة، وبعض هذه الجذور تظهر على سطح الأرض وتمتد كالقضبان المتوازية أو المتقاطعة، وتوجد شجرة «الباوباب» التى تعرف بجذوعها الضخمة، والتى يتخذ بعض الأفراد فيها مأوى لهم بحفر الجذوع بعد قطعها، وفى تلك الغابات يكاد يعيش الإنسان فى ظلام دائم، فالنهار تحجب الأغصان المتشابكة والأشجار المتزاحمة ضوءه والليل يزيدها حلكة ورعبًا، وغالبًا ما يتسلق الإنسان أو الحيوان تلك الغابات ويعيش بعيدًا عن الأرض تجنبًا للنمل الطيار

الكبير، والأفاعي المخيفة، وذباب «تسي تسي» وغير ذلك من الهوام والحشرات.

وفي مناطق الغابات يعيش السكان على قطع الغابات، ويزرعون مكانها الكاكاو، وشجر زيت النخيل «النارجيل» وجوز الهند وغيرها، والبعض يعيش على الصيد البري في الغابات، وقسم ضئيل يعتمد على التجارة، ويصعب تربية الماشية في هذه الغابات بسبب سوء المناخ، وللضرر الكبير الذي تسببه «تسي تسي».

وقد اكتشف الفحم في بعض مناطق «الأيبو» لكن أغلب العمال العاملين فيه المسلمين الزنوج، كانت وجهتي إذن مناطق الأيبو، خاصة الغابات.. وقبائل الأيبو عدة ملايين، وهم متأخرون بالنسبة لليوروبا في الغرب.. قراهم صغيرة وتعتمد على النخيل الزيتي في حياتها.. ولقد انتشرت النصرانية وبين كثيرين منهم عن طريق المبشرين والتسهيلات التي كان يقدمها لهم الاستعمار.

وهناك بعض الغابات التي قُطعَت وظهر مكانها أشجار جوز الهند والكاكاو والموز والفواكه الأخرى.. وهذه الغابات أكثر ما تكون في وادي نهر «النيجر» و «البينوئي».

فقد دخل الإسلام نيجيريا عن طرق الشمال، أما النصرانية فقد أتت مع المستعمرين من الجنوب، إلا أن هناك كثيرًا من القبائل

يدينون بالوثنية ويعبدون قوى الطبيعة، ويتركز أكثر هؤلاء فى الجنوب فى منطقة الغابات.

قال لى صديقى عبد الرحيم:

- «أعتقد أنك لن تستطيع أن تنجز شيئًا ذا بال فى هذه الجولة القصيرة، لكى تدعو هؤلاء الناس إلى دين الله الحق.. يجب أن تبقى بينهم سنين طويلة..».

قلت ونحن نسرع بالسيارة التى أقودها بنفسى:

- «أتعرف قصة «نواكوى؟..».

- «مَنْ نواكوى؟».

- «أحد المبشرين بالدين المسيحى..».

- «ماذا جرى له؟».

- «سافر ذات يوم إلى السنغال.. والتقى بأحد علماء الدين المسلمين هناك.. وكم كانت دهشته حينما اكتشفت من خلال المناقشات أن الإسلام هو ما يجب أن يؤمن به.. وعندما عاد إلى قريته النيجيرية.. شرح للقرية.. آمن به أكثر من ستة آلاف شخص.. أترى.. رجل واحد هداه الله إلى اليقين فى وقت قصير تبعه آلاف من الأيبو..».

وبرغم الأمل والثقة اللذين يعمران قلبى إلا أنى كنت مدركًا لعظم العمل الذى أقوم به، كنت واثقًا أن الشعب الذى يجمعه هدف أسمى، وتربطه عقيدة سمحاء، قادر على أن يثبت أمام أعاصير الغزاة، ومؤامرات الاعداء..

وأطبق الليل، - والغابة تبدو شاسعة كصحراء من الشك والاضطراب والخطر، و قال عبد الرحيم والمطر يتساقط، ويتردد صدى سقوطه على الأوراق الخضراء فى شتى الأنحاء:

- «لا بد أن نستريح..».

- «بالطبع..».

- «فالليل يا صديقى وعر المسالك..».

وأضأت كشافًا كهربائيًا، كما أضأت مصابيح السيارة، فى الطريق الضيق الممهد بطريقة بدائية، وأخذنا نبحث يمنة ويسرة عن مكان آمن..

- «الجلوس على سطح الأرض لا يؤمن جانبه..».

- «لِمَ لا ننام داخل السيارة؟».

هذا ما اقترحته لكن عبد الرحيم قال:

- «فلنتسلق هذه الشجرة الضخمة ولنتخذ لنا موقعًا فوقها، ولنترك السيارة كما هى».

كانت فكرة صديقى تعنى الأمن الكافى لنا، فلو حاول أحد أن ينقض على السيارة لما وجد بداخلها إنسانًا، وبذلك نستطيع أن نرقب الطريق والسيارة، ونتجنب المفاجآت.. مجرد خدعة بريئة لا تعنى سوى الحيطة والحذر، إن شعورنا مهما كان الأمر يختلف عن أى شعور آخر لدى أولئك المغامرين الباحثين عن الثروة أو الهادفين للسيطرة على القبائل، أو الذين تحركهم أهداف سياسية، نحن غير هؤلاء جمعيًا إذ ليس لنا مقصد سوى أن ندعو إلى الله، وهذا يعمق شعورنا بالرضى والثقة والصبر على المكاره..

- «عبد الرحيم..».

- «ماذا تريد منى؟ إن ما أفكر فيه الآن الأكل يا عثمان..».

- «وسف نأكل ونتحدث..».

- «الأفضل أن نأكل فى صمت..».

- «أردت أن أقول إنه علينا أن نتناوب النوم، نصف الليل الأول أنام فيه، وأنت فى النصف الثانى».

- «يخيل إلىّ أننى لن أستطيع النوم مطلقًا».

- «هل أنت خائف يا عبد الرحيم».

- «أنا لا أخاف الموت، لكنى مادمت حيًا، فإن هناك عواطف لا فكاك منها فى قلب الرجل الحى».

- «أعلم، نحن بشر. . ».

أكلنا وشربنا، واضطجعت على بطانية سميكة، ووضعت حذائي كوسادة تحت رأسي، بينما أخذ عبد الرحيم يدندن بأغنية إفريقية، يترنم بها بعض الأبيو في الشمال، لعله حفظها عنهم، قلت:

أتعرف معنًى لهذه الأغنية الشعبية؟.

قال عبد الرحيم مترجمًا للأغنية:

حبيبتي السمراء الفاتنة.

تتواثب فوق الأغصان الخضراء والمجدولة.

تحمل في عينيها الشوق العارم.

تنساب أغانيها الحلوة.

كالسحر العابق في قلب الغابة.

المارد يحتضن طبوله..

ضربات متوهجة النبرات.

ودمائي يشعلها اللحن الأكبر.

حبيبتي السمراء الفاتنة.

أبوها ملك قبيلة.

تحرسه سهام لا ترحم.

أنا أبحث عن ثغرة.

أنفذ منها لفتاتي الحلوة..

•••

ولم أستطع أن أتابع أشعار «الأيبو» فقد غلبني النوم، ولم أعد أعي شيئًا، ولست أدري أطال الوقت أم قصر، فقد استيقظت على حركة عنيفة، وضربات متتالية، ونظرت حولي، كان عبد الرحيم يضيء الكشاف ويهوى بمؤخر «البندقية» في ضربات قوية، وصحت:

- «ماذا جرى».

وجريت صوبه، كان يقتل حية كبيرة.

- «هل أصابك مكروه؟».

- «الحمد لله، لقد اكتشفتها في الوقت المناسب».

كان يلهث، واستطرد يقول:

- «تستطيع أن تكمل نومك..».

- «لا أستطيع، أشعر بأني استرحت بما فيه الكفاية..».

ولم أستجب لإلحاح عبد الرحيم كى أستأنف النوم، فما كان منه إلا أن أستلم مكانى، وراح فى سبات عميق بعد دقائق معدودة، وجلست وحدى ممسكًا بغدارتى أدقق النظر فيما حولى، الظلمات المتكاثفة تختلط بالخضرة الزرقاء وقطرات مطر تتساقط وعشرات الأصوات للهوام والحشرات والحيوانات الغريبة.. تمتزج كلها فتخرج ضجة لا يمكن وصفها بدقة، وبدت لى الغابة المكتظة بالأشجار والحيوانات وكأنها صحراء مليئة بالغموض الفسيح.. هنا لا تكاد توجد أية معالم كالصحراء تمامًا.. والإنسان يلجأ إلى الفطرة والإيعاز الداخلى ليجد طريقه، معرفة الجهات الأصيلة وقليل من الجغرافيا يسهل مهمة السير فى هذه الغابات الكثيفة..

وتسلل إلينا ضوء خفيف بعد أن أشرقت الشمس، وكان من المتوقع أن نترك هذا الوادى الذى تغرقه الغابات، ونبلغ تلاً مرتفعًا بعد السير بضع ساعات، واستيقظنا وتناولنا القليل من الطعام، وشرب كل منا كوبًا من الشاى ثم استأنفنا المسير..

قال عبد الرحيم والسيارة تعلو وتهبط فى الطريق الضيق غير الممهد:

– «أتعتقد أن للحياة قيمة؟».

– «قيمتها فى طاعة الله..».

سكت عبد الرحيم ولم يعلق بكلمة، وبعد دقائق قال:

- «وما هى طاعة الله؟».

- «تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه يا عبد الرحيم..».

- «أى أوامر ونواه؟ كل ذى ملة له أوامره ونواهيه..».

- «الفضائل فى كل دين تكاد تكون واحدة، وقد أتى محمد ﷺ بالكلمة الأخيرة، ولم يتنكر لما سبقه من أديان إلا ما تناولته يد التحريف».

هز عبد الرحيم رأسه قائلاً:

- «صدقت..».

وتنهد، ثم قال:

- «إذن قيمة الحياة فى الطاعة».

- «أجل..».

- «ما أعظم أن يأوى الناس جميعًا إلى ظل طاعة الله..».

- «ولهذا نقتحم الغابات، ونغالب المشاق..».

أشرق وجه عبد الرحيم بالفرحة الغامرة، وقال:

- «أنا سعيد جدًا بهذه الرحلة الطيبة..».

وضغطت فجأة على كابحة السيارة فتوقفت عندما سمعنا صيحة مميزة انطلقت على مقربة منا .

- «ماذا هناك يا عبد الرحيم؟» .

- «لعلنا اقتربنا من إحدى القرى» .

- «هذه الصيحة- حسبما أعتقدل- تنبئ عن قدوم قوم غرباء . . أعتقد أن رجلاً من الأيبو يخبر قبيلته بمجيئنا . . » .

- «هو ذاك . . » .

وما أن استأنفنا المسير ، واقتربنا من حافة الغابة ، حتى وجدنا أنفسنا محاطين بعدد كبير من الرجال العراة تمامًا ، وفى أيديهم السهام المشرعة ، وبعضهم يحمل بنادق إنجليزية حديثة الصنع ، لم نُصّبْ بشيء من الخوف أو الارتباك ، فهذه طبيعة الأيبو إذا ما اخترق عزلتهم غريب ، أغلقت السيارة ، وضممت يدى محييًا ، وأنا أهز رأسى توقيراً لزعيمهم ، ثم قال :

- «جئنا لمقابلة الأمير . . » .

رد أحدهم بلغة الأيبو :

- «مَنْ أنتم؟» .

- «ضيوف؟» .

ضحك وقد بدا على وجهه شيء من الاطمئنان، وقال:

- «هكذا يقول كل من يأتى إلى هنا، لعلكم تجار؟».

- «بل جئنا لغاية نبيلة..».

قال قائدهم ويبدو أنه رجل محنك طحنته التجارب:

- «هذا ما سنعرفه فيما بعد..».

وأشار إلى بعض رجاله فركبوا السيارة، وجاء هو وجلس إلى جوار عبد الرحيم من الخارج، ثم أعطى الإشارة بالسير، فانطلقنا حسب إشاراته، وبقينا سائرين حتى بلغنا مجلس الأمير، كان فى حوالى الخمسين من عمره، قوى البنية، حاد النظرات، يلبس كثيراً من عقود الخرز، ويحيطه من حوله بمزيد من التجلة والفخار، وعلى الرغم من أن ملامحنا توحى بأننا غير غرباء إلا أننى قلت فى ثقة:

- «نحن إخوة.. قدمنا من نيجيريا الشمال..».

هز رأسه محييًا، وقال ما معناه إننا فى بلدنا، وإننا على الرحب والسعة، ودار بيننا حديث طويل عن الأحوال العامة والتجارة وعن جمال مدينة سوكوتو وأحمدو بيللو وغير ذلك من الأمور..

الشيء الغريب الذى لفت نظرى، هو أنه بعد ساعة من وصولنا فوجئنا بقدوم أحد المبشرين الأوروبيين الذى حيا شيخ القبيلة أجمل تحية، ثم صافحنا وهو يقول:

- «توم . . الأب توم . . يسعدنى أن أرحب بكم» .

يتكلم من مركز القوة ، كلماته تعنى أن الأرض أرضه ، والبيت بيته ، يبدو أن مهمتنا هنا ستكون صعبة ، وفكرت آنذاك أن نترك القرية ، ثم ننتقل إلى مكان آخر ، وكان الأب توم يرمقنا طول الوقت بعينيه النافذتين من تحت المنظار الطبى الصافى الذى يبدو منسجمًا تمامًا مع وجهه الأشقر ، والصليب الذهبى الذى يستقر على صدره ، وملبسه الكهنوتى البالغ النظافة ، قال الأب توم :

- «أية مهمة نستطيع أن نؤديها لكم . . » .

قلت فى شىء من الضيق المكظوم :

- «لقد جئنا لأمير القبيلة» .

- «أمير القبيلة رجل طيب ، ويرحب بالغرباء . . » .

قلت فى حدة :

- «لسنا غرباء . . » .

- «أنت تعلم أن نيجيريا بلد واحد أيها الأب توم . . » .

- «بالتأكيد . . » .

ثم عاد الأب توم يقول :

- «يبدو أنكم لم تزوروا الأيبو منذ زمن طويل . . » .

- «نعم . . » .

- «الدنيا تتغير . . هم الآن أكثر تحضراً ومدينة عن ذى قبل ، ويدركون أن لهم رسالة فى الحياة ، ويقتربون أكثر وأكثر من ملكوت السيد المسيح . . المسيحيون منهم مسيحيون حقيقيون . . » .

التفت إلى أمير القبيلة مستأذنًا :

- «نريد أن نستريح بعض الوقت ، ونود أن نلتقى فى المرة القادمة على انفراد . . » .

تدخل الأب توم قائلاً :

- «حسنًا . . أنا أنصرف بدورى . . إذ لا بد من المرور على المدرسة التى أشرف عليها ، ولا بد أن أعرج على المستوصف الصغير الذى نداوى به المرضى . . يسعدنى أن تزورونى فى منشآتى هنا ستجدون أيضًا مكتبة لاهوتية جميلة بها عدد لا بأس به من الكتب الإنجليزية القيمة . . » .

وانصرف الأب توم قبل أن ننصرف . .

قال عبد الرحيم بعد أن استقر بنا المقام فى بيت صغير متواضع جعلته القبيلة للضيافة :

- «يبدو أننا وصلنا متأخرين . . » .

- «لقد جئنا فى الساعة التى أرادها الله . . » .

- «الأب توم يبدو عليه أنه رجل سياسة أكثر من رجل دين» .

- «هو ذلك . . » .

- «قد يستطيع أن يُفشِل مهمتنا . . » .

- «سنقول كلمتنا مهما كان الأمر . . » .

- «يبدو أن له بعض الجواسيس يخبرونه عن كل قادم جديد . . » .

- «بالطبع وإلا لما أتى هكذا بسرعة . . » .

وأخذت أمعن الفكر فيما يجب أن أفعله ، وكان لا بد أن نقوم بجولة سريعة فى أنحاء القرية لنأخذ فكرة عامة عن البيئة التى جئنا إليها .

●●●

٧

أثناء تجوالنا فى أنحاء القرية القائمة على أطراف الغابة ، والتى تقبع خلفها غابات أخرى ، كانت توجه إلينا أسئلة كثيرة ، أغلبها ينصب على السبب الذى جئنا من أجله ، وكنت أشك أن مصدر هذه الأسئلة هو الأب توم .

وليس غريبًا أن يثار التساؤل من حولنا كقوم غرباء عن القرية ، ومع ذلك فقد كنت أرى عينى «توم» النفّاذتين تقفان وراء كل سؤال ، إن لدى خبرة طويلة بهؤلاء المبشرين الذين يعميهم التعصب أحيانًا عن الصدق ، فيعادون الحقيقة أكثر مما يصادقونها ، ويعزفون على أوتار التفرقة والشر ، ويثيرون الفتن والخرازات ، همس عبد الرحيم ونحن نستقر ثانية فى بيت الضيافة :

- «أرى نذر المتاعب تحوم من حولنا» ،

قلت فى نبرة إصرار :

- «أنا أكره التحدى، لكنى هذه المرة مستعد تمامًا لمواجهة «توم» . . » .

وعاد عبد الرحيم يقول :

- «أرى على ملامح وجهه سمات ضابط حرب قديم، وليس رجل دين» .

- «ليس غريبًا أن يكون كذلك» .

- إذن فالمعركة بيننا وبينه ستكون حامية الوطيس . . » .

- «ليكن . . » .

قال عبد الوحيم معترضًا :

- «نحن لا نملك شيئًا، أما هو فيملك الكثير . . » .

- «ماذا تعنى؟» .

- «هو أجنبى، وبعض الناس يتبعونه، ومعه المال والخدمات التى يقدمها لهم، ثم إنه يستطيع أن يوقظ الفتن القديمة التى أثارها الاستعمار بين «الأيبو» و «الهوسا» . . وفى ذلك خطر كبير» .

- «استمع إلىّ جيدًا يا عبد الرحيم . . نحن نملك الصدق . . ولينصرن الله من ينصره . . لقد خرجت أساسًا فى رحلة إلى الله . . » ، ولم يمض على بقائنا ببيت الضيافة سوى ساعتين أو ثلاثة

حتى قدم إلينا رجل من «الأيبو» كان قصير القامة، كبير الرأس، ضيق العينين، ووجدناه أمامنا فجأة، لم يلق علينا التحية، استطعت أن أقرأ فى عينيه الضيقتين شيئًا ما، ومع ذلك فقد ابتسمت له مرحبًا لم يرد على تحيتى وإنما وقف كالصنم بالباب وفى يده رمحه الطويل، وقال :

- «ارحلوا من هنا . . » .

قلت فى دهشة :

- «لماذا؟» .

- «لا نريدكم فى قريتنا . . » .

- «لكن زعيم القبيلة رحب بنا» .

- «لا يهم . . » .

- «ما معنى قولك؟» .

- «معناه إن لم ترحلوا يصيبكم شر . . » .

- «لكننا لم نسئ إليك» .

قمت واقتربت منه، ثم سددت إليه نظرات لا تضطرب، وقلت :

- «أنا لست من الأيبو . . » .

- «أدهشته كلماتى، وفتح عينيه على الآخر، وقال:

- «كيف؟».

- «الأيبو إخوة لنا.. ودائمًا يستقبلوننا بالترحاب ويعرفون واجبات الضيافة أكثر من ذلك..».

ارتبك، وبدت عليه مظاهر الاضطراب، وقال:

- «لماذا جئتم..».

- «جئنا لخيركم..».

- «بل جئتم لتخرجونا من ديننا..».

ضحكت، وأدركت الدافع وراء كلماته، وقلت:

- «ليست هذه كلماتك، ولكنها بوحى من الأب «توم»..»

فغر الرجل فاه دهشة، وقال:

- «كيف عرفت؟».

- «لأننى أعرف أخلاق الأيبو جيدًا.. وما قلته منذ لحظات غريب عن أخلاقكم وطباعكم.. إنها كلمات لا يقولها إلا عدو لدود».

- «لكن توم صديقنا، ولقد علّمنا الكثير، وأغدق علينا من خيره..».

- «الصداقة الحقيقية لا يعرفها توم . . إنه يعرف مصلحته أين ، ويخدم سادته الذين قهرونا بالرصاص منذ سنين . . هل نسيت الدماء التي أريقت فى الغابات ، ولونت الجبال ، وبعثت الحزن فى أنحاء القرى والمدن . . » .

ولما لم يجب بكلمة . . استطردت قائلاً :

- «حسنًا . . سنرحل ، لكن بعد أن نلبى دعوة الزعيم على العشاء . . لا يصح أن نهدر دعوة رجل عظيم مثله . . » .

هز رأسه فى خجل ومضى لحال سبيله ، لكنى كنت أرى الخجل والخوف يشى حركاته ونظراته . .

•••

التقينا فى المساء حول أمير القبيلة كان يجلس وحوله الحراس ، الأب توم على مقربة منه ، والنار مشتعلة ، والسماء بلا قمر وأخذ الرجال والنسوة يؤدون رقصة قومية حول النار ، والطبول تدق فى قوة وحرارة ، والأغانى ترتفع فى نغم إفريقى شجى ، كنت أفهم جيدًا معنى أغنيات الأيبو ، وكنت أشعر بالاندماج فيها وأتمثلها حقيقة ، وأذوب فى أحلامها العذراء . . شعرت برباط عجيب يشدنى إلى هؤلاء الناس وكم كانت دهشتى حينما رأيت عبد الرحيم يثب إلى حلبة الرقص ، ويترنم بصوت شجى بأغنيته المحبوبة :

«حبيبتى السمراء الفاتنة»

«تتواثب فوق الأغصان الخضراء المجدولة»

«تحمل فى عينيها الشوق العارم..»

«تنساب أغانيها الحلوة»

«كالسحر العابق فى قلب الغابة»

«أبوها ملك قبيلة»

«تحرسها سهام لا ترحم»

ونظرت من حولى فوجدت زعيم القبيلة يبتسم فى رضى وسعادة، والابتسامة تضىء وجهه الأسمر، وتتماوج من انعكاسات النار المشتعلة على وجهه، ووجدت رجال القبيلة ونساءها يطربون لغناء عبد الرحيم، ويرددون بعض المقاطع وراءه فى حماس منقطع النظير، وحانت منى النفاتة إلى الأب توم.. كان وجهه شاحبًا مكفهرًا، يبدو عليه القلق والاضطراب فى جلسته، لكنه كان يتمالك أعصابه، ويتظاهر بالسرور والإعجاب.. فى الحقيقة إن إقدام عبد الرحيم على الاشتراك فى الحفل كان نقطة تحول كبيرة فقد بدا لى أن الجميع ينظرون إلينا كأصدقاء وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث فى ود وصراحة، وتكلمنا وكإخوة، وتوارى تمامًا شعور الغربة، عن بعض الصفقات التجارية، وقال أمير القبيلة:

- «سوف تقضون معنا على الأقل عشرة أيام».

فقلت وأنا أنظر إلى الأب «توم»:

- «قد لا يروق هذا البقاء لبعض الناس».

قال فى غضب:

- «كيف؟ أنا هنا الذى آمر وأحكم. . هل أساء إليكم أحد؟ . . ».

قلت بلباقة وأنا أحدق فى توم:

- «الحقيقة أننا نشعر أننا بين أهلينا. . ».

- «تلك هى الحقيقة. . ».

وفى النهاية قال زعيم القبيلة كلامًا فهمت منه أنه سوف يقدم لنا بعض نساء القبيلة كهدية طوال فترة الضيافة، ولم يكن هذا غريبًا عند بعض القبائل فى الجنوب والشرق، فما أكثر ما يقدمون نساء لبعض الضيوف الأعزاء وكان هذا منتهى الكرم والرعاية، غير إنى قلت:

- «سيدى الزعيم. . نشكرك ونأسف عن عدم تقبل هذه الهدية. . ».

نظر الزعيم إلى فى دهشة يخالطها غير قليل من الغضب:

- «لماذا؟».

- «نحن مسلمون. . ».

- «مسلمون؟».

- «نعم».

- «ودينا يحرم هذا اللقاء ويعتبره غير شرعى. . لا استمتاع بالنساء إلا فى ظل الزواج. . ».

ضحك الزعيم، وقال:

- «إذن فحيوانات الغابة أكثر حرية واستمتاعًا منكم. . ».

ابتسمت قائلاً:

- «هم حيوانات يا سيدى الزعيم. . والإنسان غير الحيوان».

وأخذت أشرح له معنى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ومعنى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وآداب الإسلام فى العلاقات بين الرجل والمرأة واستطال بنا الحديث عن نظرة ديننا إلى الألوان والأجناس والدنيا والآخرة، والأنبياء والرسل والكتب المقدسة، و «توم» يجلس قبالتنا يكاد يأكله الغيظ. .

وقال الزعيم فى ابتسامة بريئة:

- «الحقيقة أن الأب «توم» كلمنى كثيرًا عن أمور كهذه. . ».

ثم نظر إلى «الأب توم» قائلاً:

- «معذرة يا توم فقد كان من الصعب أن يستوعب عقلى كل ما قلته لى عما تسميه بطبيعة المسيح . . » .

ثم عاد إلىّ يقول :

- غير أن كلامك يا عثمان، يبدو لى بسيطًا سهلاً لا يتعب الرأس، ومن السهل هضمه . . » .

ودهشت إذ سمعت الأب «توم» يقول فى غضب :

- «الإسلام دين السوقة ورعاة الإبل والغنم . . إنه يخدع ضعاف العقول . . » .

ويبدو أنه لم يدرك أن مثل هذا الكلام قد يسىء إلى الزعيم، غير أنه كان يقصد شيئًا غير ذلك، كان يريد الحط من قدرى ومن قدر الدين الذى أتحدث عنه، قلت فى هدوء :

- «السهولة ليست عيبًا والله يخاطب البشر جميعًا بصرف النظر عن تفاوت قدراتهم العقلية . .

البساطة ميزة وليست عيبًا . . لذا آمن العبيد والسادة بمحمد، وتبعه كبار الشعراء والحكماء، والقادة والجنود . . لأن كلماته الصادقة استطاعت أن تدخل كل قلب . . » .

- «ما معنى كلمة الله؟» .

- «خالق الكون بمن فيه وما فيه . . » .

- «أليس له ولد؟».

- «الكل سواسية.. البشر جميعًا سواء.. أمام الله.. وهو الواحد الأحد.، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد..».

تململ الزعيم فى جلسته، وقال:

- «لماذا يكره النصارى نبيكم؟».

- «أما نحن فنؤمن بنبيهم..».

قال وقد ازدادت دهشته:

- «أمرك عجيب..».

- يقول القرآن.. ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

تربع الزعيم وأعطانى أذنًا مصغية، وقال:

- «ما الفرق إذن بينكم وبينهم؟».

- «القرآن هو الكلمة الأخيرة إلى الناس، ومحمد ﷺ خاتم الرسل، والمسلم لا يكمل إسلامه إلا إذا آمن بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة..».

تمتم الزعيم قائلاً :

- «هذا عجيب . . » .

هب «توم» واقفًا ، وقال :

- «ليس فى الإمكان السكوت على هذا الطعن الخفى فى دينى ، لقد جئتم لتثيروا فى الأرض هنا الفساد والفتن والاضطراب ، والزعيم لن يخدع بكلماتكم المعسولة . . أنا هنا أنشر العلم ، وأعالج المرض ، وأحمل لواء المحبة والتسامح . . أما أنتم فقد جئتم تتاجرون بالكلمات . . تريد سيطرة الشمال النيجيرى على الأيبو الأحرار . . تريدون استغلالهم . . أنتم أذناب أحمدو بيللو . . » .

لم يعلق الزعيم بكلمة ، ولكنى قلت :

- «أنت تخلط أمورًا كثيرة . . وتحاول أن تثير الغبار لتطمس الحقيقة . . الهوسا والأيبو إخوة . . ونيجيريا دولة واحدة . . والزعيم يعرف جيدًا من هم المستغلون ومثيرو الفتن . . » .

ثم قمت ، وقلت :

- «طاب مساؤك يا سيدى الزعيم . .

طاب مساؤك أيها الأب توم . . » .

وعدت إلى بيت الضيافة أنا وعبد الرحيم، كانت رأسى يثقل عليها الصداع، وشعر بأنها تكاد تلتهب، ولامست وجهى نسمات الجو الرطبة، وهمست:

- «أعتقد أننا لم نخسر الجولة يا عبد الرحيم..».

- «إنها مهمة شاقة على أية حال..».

- «الأب توم كان يوشك أن يصرعنى..».

- «إنه لن يكف عن التدبير، وأرى أن نرحل بأسرع وقت ممكن..».

- «أما أنا فتستهوينى هذه الصراعات.. أشعر بلذة كبرى، وأنا أصارع الفساد والضلال.. أشعر أننى اقترب أكثر من الله..».



٨

كنا نتحرك فى أنحاء القرية ونمتزج بأهلها، ونؤدى شعائرنا الدينية بحرية تامة، لا شك أننا كنا محط الأنظار، فعندما كنا نذهب إلى الغابة لنصطاد أو لنقطف الثمار، كان رجال الأيبو، وبعض النسوة، يحيطون بنا، وكان أطفالها يحاولون تقليدنا وهم عراة بطريقة بدائية مضحكة، وكانت الأسئلة الكثيرة تتناثر من حولنا، كنت أطلق السهام وأنا أقول لأحد رجال الأيبو:

- «عبادتنا التوحيد..».

- «وماذا يعنى التوحيد؟».

- «ألا نعبد إلا الله..».

- «وباقى الأشياء التى نعبدها..».

- «كلها إلى زوال.. البشر أيضًا إلى زوال، والله وحده هو الخالق الحى الباقى..».

ورد رجل الأيبو معلقًا :

- «إن الأشياء التى نعبدها إنما هى طريق إلى الله . . لا نعبدها لذاتها . . » .

- «أنتم تخافون مظاهر الطبيعة ، ولهذا عبدتموها . . والخوف نقيض التوحيد . . » .

يقول رجل الأيبو فى دهشة :

- «ماذا تعنى؟» .

- «أعنى أنه إذا خفت الحاكم فقد عبدته ، أو أديت له ما يمكن أن تؤديه نحو الخالق ، إذا خفت الرعد سجدت له ، والسجود لغير الله صغار . . الله فى ديننا لا يحتاج إلى وسطاء . . » .

ويتحمس رجل الأيبو قائلاً وأنا أطلق السهم :

- «أنخاطب الله مباشرة؟» .

- «ولِمَ لا؟» .

- «لكننى لا أراه . . » .

- «هو يراك . . هو قريب منك . . كل شىء فيك منه وإليه . . أنت تحرك يديك وساقيك بإرادته ، نبضات قلبك بين أصابعه . . العبودية له وحده . . عندما تخلص العبودية لله وحده تشعر بالتحرر الكامل . . » .

ويهز الأيبو ، رأسه فى دهشة :

- «أهذا هو التوحيد؟».

- «نعم..».

- «ومحمد؟ هل هو رمز للإله.. أم ابن له؟».

ألقيت بالسهام جانبًا، وقلت:

- «محمد عبد الله ورسوله.. محمد بشر اختصه الله بحمل كلماته إلى الناس..».

- «هو مثلنا إذن..».

- «نعم بشر..».

- «أيحب السود؟».

ضحكت في حب، وقلت:

- «كان يقول ما معناه أنه لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى..».

- «هل هذا حقيقي..».

- «كان من صحابته بلال الحبشي.. وصهيب الرومي.. وسلمان الفارسي.. الجميع إخوة.. ميزان التقوى، العمل الصالح..».

- «هذا شيء ما سمعنا به قط..».

- «وكان يقول عن ابنته . . لو أن فاطمة سرقت لقطع محمد يدها . . ».

وأخذت أحدث رفقاء الأيبو عن سلوك المستعمرين أيام الغزو فكيف كانوا يسوقوننا عبيدًا، ويعاملوننا حيوانات، ويهددون إنسانيتنا، ثم أخذت أحدثهم عن فتوحات محمد وأصحابه، وكيف تحول الغالب والمغلوب إلى إخوة يجمعهم الإسلام، فلا سادة يحتقرون المساكين، ولا استغلال للعاملين، وكانوا يطربون للقصص التى أرويها عن الغزاة والفاتحين، وعن الخلفاء الراشدين، ويقفون صامتين مشدوهين لروعة ما يسمعون وكنت أعلم أن كلماتى تنطلق فى كل مكان، ويتناولها الرواة بين الأكواخ، وعلى سفح الجبل، وفى قلب الغابات المظلمة، كما كانت تصل أول بأول إلى زعيم القبيلة . . أما الأب «توم» فقد انزوى فى كنيسته يطيل التراتيل والصلوات ويزيد عدد المواعظ، وحوله عدد قليل ممن آمنوا به من رجال الأيبو، ولعل هؤلاء الرجال كانوا ينقلون إلى مسامعه كل ما يجرى فى القرية.

وكنت أشعر أن الأمور تمضى على ما يرام، وأن الجو قد تهيأ تمامًا إن لم يكن للإيمان الكامل بدعوتنا، فليكن للرضى عن سلوكنا والسماح لنا بأن نتكلم كيف شئنا، بل كانت الآذان تتلهف بشدة لكل ما نقول.

كان قد مضى علينا أسبوع كامل، ونحن ننعم بهذا الجو الروحانى المثالى، وكنا نلتقى خلال هذا الأسبوع بزعيم القبيلة

الذكى المتفتح العقل، وقد لاحظ الجميع أن الزعيم أخذ يهمل شعائره الدينية القديمة، بل كان يخجل إذا رأى أحدًا يؤديها وإن لم يتدخل لوقفها، كما لاحظنا أن علاقته بالأب توم لم تعد تلك العلاقة الوثيقة القوية، بل تحولت إلى نوع من المجامل لرجل قضى بينهم أكثر من عامين، يداويهم ويدرس لهم.

وفوجئنا ذات مساء بالأب «توم» يأتى لزيارتنا، كان يبدو عليه الضيق والكرب، لكنه كان يحاول أن يتماسك ويظهر بمظهر القوى الواثق بنفسه، والذى لا يبغى سوى السلام والمصالحة، وجلس إلى جوارى قائلاً:

- «إن أرض الله واسعة . .».

- «هذا حق . .».

تنحنح، وقال:

- «وهناك مناطق كثيرة أخرى فى الشرق والغرب . . تستطيع أن تذهب إليها . .».

قلت فى هدوء:

- «نحن لا نقتسم الأرض، ولا نساوم على البشر . .».

- «ما قصدت ذلك يا صديقى . .».

- «نحن نتحرك بين شعب نيجيريا بمنتهى الحرية . .».

- «يا صديقى قد يسيء هذا إلى مصلحة الناس هنا . . » .

- «نحن لا نملك غير الكلمات . . » .

- «لكن الناس هنا سذج وبسطاء . . قد تتحول الكلمات لديهم إلى سهام ورصاص . . » .

قلت فى دهشة :

- «لماذا؟» .

- «من أجل أنك تتدخل فى شؤونهم . . » .

- «ما قصدنا ذلك . . نحن نتكلم . . فمن شاء آمن ومن شاء انصرف عنا لا نعاقب أحدًا ، ولا نعطى مكافأة مادية لأحد . . نحن عابرو سبيل ليس فى حوزتنا غير قليل من الطعام ، وقدرة على السير فى الطريق . . » .

ووجدت عبد الرحيم يقبل نحونا بوجهه الأسمر ويقول :

- «أيها الأب . . ألم تفكر يومًا أننا قد نكون على حق؟» .

قال فى إصرار :

- «أنا مسيحى وأعرف الحق من وجهة نظرى الخاصة . . » .

- «قد تكون وجهة نظر الآخرين أصوب أيها الأب توم» .

نظر إلى عبد الرحيم فى اشمئزاز ، وقال :

- «الفارق الحضارى بينى وبينكم يمتد إلى قرون . . » .

ثم استطرد فى برد :

- «لقد جئنا هنا لنعلمكم كل شىء . . الصناعة والزراعة والجغرافيا . . والدين . . نحن أساتذة . . تلك هى الحقيقة . . » .

تدخلت قائلاً :

- «من الشرق ظهر المسيح . . وفى الجزيرة العربية ولد محمد . . وفى مصر ولد موسى . . زادكم عندنا ، ومع ذلك فإن البحث عن الحقيقة قضية أخرى لا تتعلق بقوتكم . . هذا ما أفهمه . . » .

ودار الحديث شرقًا وغربًا ، واحتدم الجدل ، وأخيرًا نظر الأب توم نظرته الخبيثة التى لا تتفق والمسوح التى يلبسها ، وقال :

- «أنتم تلعبون بالنار . . » .

- «الإفريقيون يعرفون جيدًا ما يضرهم وما ينفعهم . . » .

ضحك ضحكة ساخرة ، وقال :

- «سنرى» .

وعندما انصرف قال عبد الرحيم :

- «كان الرجل يهددنا . . » .

- «إن زعيم القبيلة لو علم بكل ما جرى لطرده على الفور . . » .

قال عبد الرحيم معترضًا:

- «ليس بهذه البساطة..».

- «كل ما أؤمن به أن الطريق إلى الله محفوف بالمكاره..».

وتذكرت شيخى «عبد الله» شيخ الطريقة القادرية الذى أؤمن بكلماته أعمق الإيمان، وتذكرت نصائحه لى، يا إلهى.. ها هى.. «جاماكا» تطل على خيالى بوجهها الأسمر الفاتن، أتراها ستسعد عندما يخبرها «نور» أننا نقوم الآن بواجب الدعوة إلى الله فى قبائل الأيبو، أم أنها ستثور وتتعصب لما آمنت به؟ كلما تذكرت أنها هنا عاشت، ولعبت فى الغابات العذراء، والتقت بالرهبان والراهبات.. أشعر بحنين غريب لهذه الأرض.. «جاماكا» ليست غريبة عنى تمامًا.. تفصلنى عنها بعض الأفكار والسلوك.. هذا أمر بسيط، لكن كيف؟ أليس الفارق بيننا بسيطًا على أية حال.. الأفكار والسلوك حيز ضخم ممتلئ بالصخور والأشواك والأفاعى. لا يصح أن أخدع نفسى.. لكنى للأسف أشعر أننى أحبها.. أتذكر كلماتها.. نظراتها فى دار السينما.. وزيارتها الغريبة لى فى البيت.. المصادفات الصغيرة تصنع أحداثًا ضخمة.

•••

كنا نتجول فى الغابة ظهر اليوم التالى، لا شك أن الحر كان شديدًا، ومع ذلك فقد كان من المستحيل أن أتخفف من ثيابى

وأمشى عاريًا أو حافيًا كما يفعل الأيبو . . وصرخ عبد الرحيم فجأة وهو ينبطح على الأرض :

- «خذ حذرك . . » .

وبحركة لا إرادية انبطحت إلى جواره خلف شجرة ضخمة ، أخذتنى المباغتة وبعد لحظات رأيت عبد الرحيم يقترب منى وهو يرتجف :

- «لقد استطاع الوغد أن يصيبك . . » .

وامتدت يد عبد الرحيم لتنزع سهمًا قد أصاب كتفى اليسرى من الخلف . . وعندها شعرت بألم بالغ ، لقد خيل إلىّ عندما صرخ عبد الرحيم فى البداية أن شيئًا ما أصابنى فى كتفى ، لكنى ظننت أن بعض الأشواك قد غرزت فى كتفى أثناء انبطاحى ، وما أن فارقتنى الدهشة حتى أصبحت مدركًا تمامًا لما أعانيه من آلام . . وقال عبد الرحيم وهو يضمد جرحى بمنديل صغير :

- «لو أصاب قلبك لقضيت نحبك فى الحال . . » .

ابتسمت برغم الألم . .

وقال عبد الرحيم :

- «يخيل إلىّ أننى أعرف الجانى . . » .

قلت :

- «لنسرع الآن . . مخافة أن تكون هناك محاولة أخرى . . » .

- «الجبان لا يضرب إلا مرة واحدة ويهرب. . أتذكر ذلك الرجل الذى أتى إلينا فى البداية وطلب منا أن نرحل؟».

- «نعم أتذكره. .».

ورآنا الناس عائدين، وبلغ الخبر مسامع الزعيم، ووفد إلى دار الضيافة خلق كثير خلف الزعيم الذى بدا غاضبًا محمر العينين. .

وعندما أخبره عبد الرحيم بما رأى، تدخلت قائلاً:

- «لا يصح أن نجزم ما دمنا غير متأكدين. .».

فى المساء كنا لدى الزعيم، ورأينا الجانى مقيدًا بالحبال فى ركن قرب النار المشتعلة، لكننا لم نر أثرًا للأب توم.

وجلسنا صامتين حول الزعيم الذى غمغم بعد فترة:

- «الخائن يقتل. .».

قلت فى ضراعة:

- «أنا صاحب الحق، وقد عفوت عنه. . يقول الله فى كتابه العزيز ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. .».

وقال عبد الرحيم وهو يحنى رأسه:

- «ليس هو الفاعل الحقيقى. . إنه ضحية. . مظلوم. .».

وأجاب الزعيم بكلمات قصار فهمنا منها كل شىء:

- «يا ضيوفنا الأجلاء . . لا بد أن يرحل الأب توم عن ديارنا . . » .

لقد جدت أحداث كبيرة لا شك، إن طرد «توم» ليس بالأمر الهين، ثم إن قتل الجانى - إذا أصر الزعيم على ذلك - سوف يجعل عند أهله وذوية ذكرى سيئة مشبعة بالدم، وأنا لم آت لهذه الديار كى أورث الأحقاد، وأخلف ورائى الأحزان، ولن نكسب كثيراً من موت رجل خدعه الحقد الاستعمارى الذى لا يرحم . .

واقتربت من الزعيم مرتكزاً على ركبتى وتناولت يديه وضممتها إلى صدرى وهتفت فى توسل :

- «بحق آبائك وأجدادك العظام . . أن تعفو عنه . . وسنرحل على الفور . . » .

ابتسم الزعيم ووجدت عبد الرحيم يقدم على خطوة غريبة أثارت فى نفسى الاضطراب، لكنها جاءت ناجحة للغاية، لقد قبّل رأس الزعيم ولامس عقود الخرز حول عنقه فى رقة، ثم اتجه وسط الصمت الضارب، وذهب إلى الجانى المقيد وفك وثاقه . . وعاد قرب النار وأخذ يرقص رقصته الإفريقية ويغنى أغنية الأيبو المحببة . . وانفرجت أسارير الزعيم . . وفاض وجهه بالسعادة والرضى . .

وبعد أن انتهت الأغنية . . أشار بيده فصمت الجميع، كان خلق كثير من القرية قد اجتمع فى هذه الساعة الحاسمة ثم وقف الزعيم، وقال بصوت أجش :

- «أيها الأبناء لقد قررت أن أعتنق دين هذين الرجلين . . » .

ساد السكون، ثم التفت صوبى قائلاً :

- «قم ولقنى الكلمات المقدسة . . » .

وفى خضم هذا السكون العامر بالدهشة، وقفت ألقنه الشهادتين باللغة العربية . . وما انتهيت وقد سال جسدى عرقًا غريزًا حتى صاح الزعيم بالحاضرين :

- «قفوا . . ورددوا الكلمات المقدسة . . » .

وعندما هدر الحشد بالشهادتين ظننت أننى فى حلم، إنه شىء يشبه الأسطورة، وراء ذلك كله سر إلهى لا يمكن كشفه، السر نفسه الذى يكمن وراء إسلام الملايين على أيدى التجار فى الهند والصين وشواطئ البحار البعيدة والجزر النائية .

وعلمنا فى اليوم التالى قبل رحيلنا أن فئة قليلة كانت تنصرت من قبل على يدى «توم» أصرت على البقاء على تنصرها . .

وفكر الزعيم فى إلزامها بالدين الإسلامى، لكنى قلت :

- «أيها الزعيم المبجل . . لا إكراه فى الدين، قد نبين الرشد من الغى . . فليسلم من شاء وليبق على دينه من شاء، هذه أوامر ديننا . . » .

قال فى استغراب :

- «أهو ذاك . . » .

- «نعم . .» .

- «أمركم مجاب . .» .

واتجهت قافلتنا الصغيرة السيارة اللاندروفر وعبد الرحيم وأنا صوب الشرق . . كانت أحداث الأمس تبدو كمعجزة من المعجزات . .

وقال عبد الرحيم :

- «على مولانا أحمدو بيللو أن يعجل بإرسال أحد العلماء ومدرس إلى هنا . . هذا أمر ضرورى . .» .

قلت فى شرود :

- «قد آتى أنا بنفسى لأعيش فى هذه الديار إلى الأبد . .» .

سامحنى الله ، فقد كنت فى هذه اللحظات أتخيل «جاماكا» وقد أسلمت وتزوجتنى وأتت معى لنرى هؤلاء الشرفاء الفقراء فى تلك المنطقة النائية على حافة الغابة العذراء .



٩

كنت أسأل نفسى فى الطريق إلى الشرق عن سر ذلك النجاح المذهل أو تلك المعجزة، ولم يكن هناك من تفسير لدى سوى أن النجاح على قدر صدق النية، كانت تحركنى طاقة هائلة. . طاقة روحية تحثنى دائمًا على العمل، ولعل أكبر فلاسفة المسلمين فى هذا العصر لم يكن ليقدر على أن يحقق مثل هذا النجاح، إن الحجة والمنطق وحدهما غير كافيين فى هذا المضمار، ومع ذلك فليس لى سوى أن أحمد الله وأسجد له شكرًا، وعبد الرحيم ليس داعية محترفًا، إنه مجرد إنسان مخلص، على قدر بسيط من الثقافة، تعلم ما تعلمه عن الإسلام فى حلقات الذكر والاستغفار، وتلقفه من فوق المنابر أو دروس المساجد، ومع ذلك فقد كان يؤدى دوره إلى جوارى بتوفيق الله، كان كثيرًا ما يدلى بالرأى الصادق والتعليق الحكيم، أو يأتى عملاً يكون وراءه خير كثير، ، كلما تذكرت أغنية الأيبو، وأثرها فى النفوس، وتقريبها بيننا وبين القوم، أضحك فى سعادة وأشكر الله. . لم أتضايق كثيرًا عندما عرجنا على قبيلة

صغيرة تبعد عن القبيلة الأولى بخمس ساعات سيرًا بالسيارة فى الأحراش، أقول لم أتضايق عندما رفضنا رجالها، وأبى زعيمها أن يستقبلنا، وعلمنا أنه يعيش هو وقبيلته فى شبه عزلة تامة، ولا يسمح لأحد بارتياد قريته، بما فى ذلك المبشرين والتجار، هناك فئة من الناس يأنسون للعزلة، ويخافون الانفتاح على بقية العالم.. ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وهكذا المقاصد مرة تصيب ومرة تخطئ.

وأنا راض بقضاء الله.. صابر لمشيئته..

وبعد يوم من رحيلنا وكنا قد انحدرنا صوب سفح الجبل إلى مكان فيه بحيرة كبيرة، وعليه أجمات من الأشجار، شديد الرطوبة خانق الحرارة، وأقمنا خيمة صغيرة لنقيم فيها يومًا أو نصف يوم نكتشف الجو، ونعرف الأرض التى نتحرك عليها، وصادفنا بعضد رجال الأيبو، لكننا لم نكن قد وضعنا خطة بعد للامتزاج بهم والتحدث إليهم.. الغريب أننا فوجئنا بالأب «توم» ومعه عدد من رجال القبيلة التى كنا قد حققنا فيها نجاحًا باهرًا ووقف الأب «توم» ورجاله ينظرون صوبنا فى دهشة، همس عبد الرحيم:

- «يبدو أن الرجل ينوى عقابنا..».

- «ليس هذا أسلوبه.. إنه لا يضرب فى وضح النهار..».

اقترب الأب «توم» وعلى وجهه ابتسامة غريبة فيها معنى التشفى والانتصار والسعادة، دق قلبى من الرعب وأنا أدقق النظر فى وجهه المقيت، وقال فى سخرية واضحة :

- «ألم تسمعوا الأخبار؟».

تبادلنا نظرات صامتة أنا وعبد الرحيم، إن معنا مذياعًا صغيراً لكننا لم نفكر طوال رحلتنا أن نبحث عنه أو نستفيد منه. وسمعت توم يقول :

- «كنت واثقًا أن تصرفات المسلمين فى الشمال ستجر الوبال والحسرة.. لست أدرى لماذا لا تدعون كل إقاليم نيجيريا يستقل بنفسه؟

لتكن الهوسا وحدها فى الشمال.. والأيبو وحدهم فى الشرق.. واليوروبا فى الغرب..».

صرخت فى ضيق :

- «كفى يا مستر توم».

- «أنا الأب توم..».

- «إنك تسيء إلى أبناء الوطن الواحد.. وتذكر أنك أتيت لتنشر دينك لا لتخطط لتمزيق الدولة إلى دويلات..».

قهقه كشيطان ورمى بالخبر الذى انقض كالصاعقة :

- «لقد مات أحمدو بيللو».

هتفت أنا وعبد الرحيم فى صوت واحد:

- «ماذا؟».

قال فى بساطة فظة:

- «قتله الثوار من الضباط فى الشمال وزوجته.. وبعد أن قتلوهما أحرقوهما بالنار.. وقتل المئات من الضباط والرجال المسلمين...».

دارت بى الأرض، امتلأت عيناى بالدموع، لكأنما أصابنى شلل تام، سمعت توم وكأن صوته يأتى من بعيد:

- «قتله الميجور «تشوكوما نزوغو» المدرس بالكلية الحربية... أما إيرونسى قائد الجيش فقد زعم أنه برىء من الحركة، ودعا الضباط المتمردين وعلى رأسهم تشوكوكا للاستسلام. وأعلن إيرونسى قائد الجيش نفسه حاكمًا عسكريًا على البلاد.. لقد سقط الشمال.. وسقط أحمدو بيللو للأبد..».

صرخت فى جنون: «اذهب أيها الملعون»، واندفعت صوبه. لكنه لم يكن أمامى.. كان قد ذهب بعيداً وهو يقهقه.. لم أكن أرى أمامى تشوكوما ولا إيرونسى.. كنت أرى الوجه الأشقر والرداء الكهنوتى.. الاستعمار والتبشير ومعهما إسرائيل.. هذا الثالوث الرهيب هو الذى قتل سيدى ومولاى أحمدو وبيللو.

وصاح توم بأعلى صوته:

- «الثورة يديرها رجال الأيبو.. تذكر جيدًا يا عثمان وبقاؤك هنا معناه الموت.. يجب أن ترحلوا فورًا..».

واختفى توم، وبقيت أنا وعبد الرحيم ننوء بثقل الأحزان القاتلة، الذكريات الغالية تمر بخاطرى، الرجل العظيم أحمدو بيللو وما قدمه لدينه وبلاده من خدمات فى سبيل رفع شأنها، ولمّ شملها، الآمال الحلوة التى كانت تداعب أفكاره بالنسبة للمستقبل، صموده فى مواجهة أعداء البلاد.. إصراره على النضال برغم التهديد بالموت، لقد مات أحمدو بيللو شهيدًا.. كان شيخى يقول: إنى أرى فى وجهه سمات الشهيد.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. ها أنت يا وطنى الغالى تقع بين براثن الأعداء وتغرق يا وطنى فى فتن سوداء كالليل الحالك.. الإخوة يقتتلون، فيراق الدم البرىء... من أجل أن ينتعش اقتصاد الاستعمار، ويضمن الاستثمار من أجل أن يركع عمالقة الشمال ساجدين تحت إرادة المستعمر.. الحدث الكبير يهز وجدانى، ويشعل قلبى، ويلطخ آمالى بالسواد.. لم أعد أستطيع السير.. أنظر من حولى فيخيل إلىّ أن الآفاق قد ملئت سهامًا سامة، وأن الموت يكمن فى كل اتجاه.. تشوكوما أيها الميجور الملعون؟ كيف سولت لك نفسك أن تفعلها.. قال أحمدو بيللو ذات يوم «لن أعزل إيرونسى.. لن

أفصله أو أفصل أى ضابط مسيحى أو من من الأيبو . . إنهم إخوتنا . . ولا أريد أن يرمينى أحد بالتعصب عندما أعزل إيزونسى أو غيره من الأيبو المسيحيين وأضع مكانه قائدًا مسلمًا . . ها هم إخوتنا من الأيبو يتزعمون التمرد ويقتلون إخوانهم من الضباط المسلمين، ويصرعون «أحمد بيللو» . . أى كارثة حلت ببلادى الحبيبة؟

ربت عبد الرحيم على كتفى قائلاً :

- «لتهدأ قليلاً . . » .

- «هل صح ما زعموا؟» .

- «لقد سمعت المذياع . . إن ما قاله الأب توم صحيح . . » .

- «كيف يحدث ذلك؟» .

- «إيرونسى يزعم أنه برىء وأن المسؤولية تقع على تشوكوكا والضباط المتمردين الخمسة وكلهم من الأيبو . . » .

تنهدت فى حسرة وهمست :

- «لا شك أن مدينتنا الآن تحيا فى ظل الرعب والعذاب . . » .

- «لابد أن نعود يا عثمان . . » .

- «سنرحل على الفور . . فليصبنا ما يصيبهم . . ولنحمل من الآلام ما يحملون» .

- «أجل».

- «وليست الدعوة يا عبد الرحيم كلمات ونصائح . . إنها تضحيات . . مات أحمدو بيللو بعد أن ضرب أروع المثل فى الصبر والفداء . . ».

وانطلقت بنا السيارة عائدين صوب «لاجوس» العاصمة، كان البؤس الحزين يوشح الغابات والليل وأصوات الحيوانات الملتاعة . . كان يخيل إلىّ أن اسم أحمدو بيللو فى الآفاق كالصدى الخالد الذى لا يموت، لقد قتلوا الأغنية الشجية على لسان كل رجل فى نيجيريا الغالية . .

قلت وقد قطعنا ساعات فى الغابات :

- «الحق لا يموت . . ».

- «الحق باق . . ».

- «وأنا أعرف ذلك يا عبد الرحيم لكنى عينى تفيضان بالدموع . . »

- «مات عمر بخنجر حاقد، وسال دم الشهيد عثمان على صفحات كتاب الله . . ولقى على بن أبى طالب ربه بعد أن امتدت إليه يد الغدر . . ما معنى أن يموت هؤلاء الصحابة الأتقياء على هذه الصورة؟ يخيل إلىّ أنها أشرف ميتة على وجه الأرض . . الذين يموتون فى ميدان الجهاد لهم عند الله منزلة غالية . . ».

ومسحت دموعى، وقلت:

- «هم المتصرون برغم موتهم..».

- «والحقد يا عثمان لن يطفئ شعلة اليقين..».

- «ولن يطمس كلمات الله..».

وبلغنا لاجوس بعد رحلة مرهقة فى الصباح.. يا إلهى ماذا أرى؟

المخدوعون والحمقى من المتصرين والحاقدون من رجال الأيبو يرقصون فى الشوارع ويترغمون بالأغانى الحماسية.. والصحفيون الأجانب ورجال الجاليات تسرق الفرحة فى أعينهم ويصورون المواكب المخدوعة.

- «ماذا أرى يا عثمان؟».

هززت رأسى فى ضيق بالغ، وقلت:

- «الشامتون».

- «ألا يفهمون أبعاد النكبة؟».

- «الأعداء الأجانب يصورون الخيانة على أنها بطولة، ويبرزون الانهيار على أنه تحرر تقدم».. صرخ عبد الرحيم وقد احتقن وجهه:

- «اللعنة على كل شيء . . لو أن بي قـوة لكنسـتـهم بمدفع رشاش . . » .

- «السكارى لا يدرون ما يفعلون . . » .

حينما عدنا إلى فندق مدام «علية» كانت الصالة صاخبة ، ومدام علية جالسة على الطاولة في اكتئاب وقد أسندت رأسها على قبضتها ، نظرت إلى عيني المحمرتين ، وهمست مخافة أن يراها أحد من الأجانب :

- «البقية في حياتك . . » .

تناولنا المفاتيح دون أن نجيب . . . اليهودي الخبيث يجلس في ركنه المعهود وعيناه تلمعان ، إنه ينظر إليّ في شك ، وبعض الرواد يتحدثون عن الفتنة التي اندلعت في البلاد ، وعن آثارها المرتقبة بالنسبة للتجارة والاقتصاد وسعر العملة وما يزخر به من أحداث ومفاجآت ، وبعض الواهمين يقسمون الإيمان المغلظة كذبًا على أنهم كانوا يتوقعون ما حدث ، والبعض الآخر يحاول تحليل الأحداث والبحث عن الأسباب المباشرة . . لم أكن أريد أن أسمع شيئًا ، وذهبت -برفقتي عبد الرحيم- إلى غرفتي كنت أريد أن أجلس بعيدًا عن الضجيج والأضواء . .

●●●

١٠

وعـدت أخـيـراً إلى مـدينتى التى يوشـحـهـا الأسـى العـمـيق، ويمطرها الحزن، وتعصف بها موجات الوجوم عدت إلى شـمال نيجيريا، حيث الرجال العمالقة يمضون منكسى الرؤوس، كسيرى النظرات، والغيظ المكتوم يطل فى المحاجر، كان تشوكوما وضباطه المتمردون قد استسلموا لقائد الجيش «إيرونسى» فى حركة مسرحية بارعة، يحاول فيها القائد أن يبرئ نفسه مما جرى، وكان معروفًا لدى الجـمـيع أن هذا القـائد ضـالع فى المؤامـرة التى أودت بحـيـاة الشهيد أحمدو بيللو وغيره من الشهداء الأطهار.. أخذتهم ضربة المتعصبين والعملاء على حين غرة..

وهذا هو بيتى جامد لا حياة فيه، الحياة أصبحت مرة المذاق منفرة، والصحاب متفرقون كل يوجس خيفة من الآخرين، وأى تجمع معناه أن تعرض نفسك ومن معك للسجن أو الموت أو الشـبـهـات، البـعض فـروا إلى أمـاكن نائيـة وآخـرون أغلقـوا

متاجرهم، والحمقى من الأيبو يتطاولون فى البنيان ويمرحون، وكأن كل شىء قد دان لهم، أصبح السلاح هو سيد الموقف، والأجانب الذين يكمنون وراء هذه المؤامرات يلعبون بمصير الوطن، ويرسمون الطريق إلى الهاوية والانهيار، لكأنما قد سكنت المدينة أرواح شريرة، وأخذت أسمع عن حكايات كثيرة كلها تصور ألوان البشاعة والانتقام، لكم تخيفنى سطور الدم القاسى، إن السنين الطويلة لا تمحوها من القلوب، ولا تستطيع صفحات التاريخ أن تغلفها، الدم المراق غدراً وظلماً يظل يصرخ دائمًا، وصراخه يورث القلق والأرق، ويحرض على الثأر والتدمير، ولا يكبحه كابح، أو يخرسه توسل، لقد ذاقت البلاد طعم الدماء وتجربة الانقلابات، ودوريات العسكر يجوبون الشوارع، وينتشرون فى المدن وهى مسارب الصحراء، والظلم لا ينجب إلا الكراهية، ولا ينبت إلا الخوف، والخوف رذيلة فظيعة.

لما دخلت على شيخى فى بيته الواسع المتواضع، كان يجلس هو وحفنة من الدراويش يذكرون الله، ألقيت السلام، ثم اقتربت منه ولثمت يده الكريمة النظيفة الباردة، وخيل إلىّ أن أهدابه تبللها الدموع، وبعد فترة قال الشيخ:

- «من قال أن الطوفان أعمى؟ للطوفان عيون يلتقط بها ما يشاء

ليدمره أو يغرقه . . وما انطلق الطوفان إلا بإرادة الله . . وإذا بدا الطوفان قاسيًا ظالمًا عشوائيًا فتذكروا حكمة الله الكامنة خلف الأشياء . . وإذا هلك الشيطان يا أبنائى فلن يكون هناك صراع . . ليس القاهر هو الطوفان، ولكن القاهر هو الله . . اذكروا ذلك جيدًا . . لا تقولوا انتهى أمر أحمدو بيللو . . ولكن قولوا أراد الله لقاءه . . فلبى الشهيد النداء . . نحن لا نسمع هتافه وهو سائر فى الطريق إليه . . لكنه لا شك كان يقول : مرحى . . مرحى . . هذا يوم اللقاء العظيم . . » .

واغرورقت الأعين بالدموع ثم انسكبت حتى بللت اللحى، وشهق البعض باكيًا . . وصاح شيخنا نافرًا :

- «لا تنتحبوا . . بل رددوا معى، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين «رددها ألف مرة . . »، وما أن انتهينا من الورد المطلوب، قلت لشيخى :

- «وماذا نفعل؟» .

قال :

- «سل قلبك» .

قلت :

- «فى القلب ترتجف أمنيات كثيرة ولا تعرف كيف تنبثق» .

- «قل كلمة الحق».

- «إنهم يقيمون فى طريقها السدود يا شيخى الجليل . . ».

- «قلها ولا تخف . . ».

- «الموت والسجن يترصدان لنا».

- «هذا هو الجهاد . . بعضنا سوف يفلسف ضعفه، ويتقاعس بحجة أن الظروف لا تسمح، والكفاح قد يكون حماقة . . لا تصدقوا هذه الكلمات؛ لأنها الموت بعينه . . الحق لا ينتصر إلا بالمجاهدة المستمرة . . لقد تعلمنا أن الموت ليس خاتمة المطاف . .

الموت مرحلة إلى الدار الثانية . . وهى أروع . . فكيف نحجم عن النعيم المقيم؟

هل تذكرون؟ أن عصا واحدة قهرت جيشًا يعد بالآلاف . . تلك عصى موسى وجيش فرعون الجرار . . والشهداء هم النخبة الممتازة التى يختارها الله . . سأراكم غدًا تسيرون فى الطرقات . . وتعلنون كلمة الحق جماعات وفرادى . . ولا ترهبوا الحديد والنار . . عزيمة المؤمن أقوى من الحديد، وأقوى من النار . . انطلقوا يغفر الله لكم . . ».

وبحثت عن صديقى «نور» فى كل الأنحاء لكنى فشلت فى العثور عليه، المتطلعون لا مكان لهم، لا يرتبطون بموعد أو بمكان،

إنهم حيث تتوفر لقمة العيش، وحيث يوجد المأوى، وبرغم صرامة الحكم العسكرى، وقسوة إيرونسى وتعصبه إلا أننى كنت أتكلم وأقوال ما أشاء، ومما يؤسف له أن بعض الإخوة من الأيبو كانوا يمشون فى خيلاء وكأنهم طبقة النبلاء المتميزة.

وكان لابد أن تتحول كلماتنا واحتجاجاتنا إلى حركة منظمة لتقتلع الانحراف، وتعود الحياة الطبيعية إلى وطنى العظيم، إن ساحل العبيد القديم لا يمكن أن تعود إليه العبودية مرة أخرى، ولا يمكن أن يفرض عليه الرضوخ والاستسلام.

وفوجئت ذات مساء بمجىء «نور».. هو.. هو لم يتغير إلا قليلاً آلمنى أشد الألم أنه لا يكترث بالأحداث الضخمة التى تهز البلاد هزًا عنيفًا، وكان يقول:

- «أنا لا أفكر إلا فى العثور على المال.. أعنى الحصول على وظيفة فى أى مجال..».

- «حيثما يوجد العدل توجد فرصة العمل..».

هز رأسه فى سخرية، وقال:

- «لا أظن أن فى الدينا عدلاً.. ولن يكون».

- «أنت يا «نور» تستمد أحكامك القاسية من خلال أزمتك الخاصة..».

- «ليكن. . فأنا كل شى. . ماذا يهمنى لو حظى العالم كله بالسعادة وبقيت تعيسًا وحدى. . كلنا أنانيون. . ».

قلت فى شىء من الاستياء:

- «إن موت الزعيم قد أجهض التقدم الذى كنا ننشده. . ».

علق دون اكتراث:

- «إنه يستحق. . ».

ذهلت لهاتين الكلمتين وصرخت فى حدة:

- «ماذا تقول يا «نور»؟ -هل جننت؟».

قال متعلثمًا:

- «لا تغضب. . كان طبيبًا أكثر من اللازم. . لو كان رجل سياسة حقًا لعلم أننا نعيش فى عالم كله ذئاب. . ».

أردفت فى أسى:

- «كان رحمه الله أبًا كبير القلب. . أفسح قلبه لكل أبناء نيجيريا. . اعتبرهم أسرة واحدة فى كيان واحد. . وكان يعلم جيدًا أن أبناء الأسرة الواحدة فيهم السوى والشاذ، والصالح والطالح. . لكنه كان أبًا بكل معنى الكلمة. . ».

وتشعب بنا الحديث هنا وهناك، وكان «نور» يحاول دائمًا أن يفلت كلما تحدثنا عن السياسة وأوضاع البلاد، وأخيرًا همس في أذني:

- «يا صديقي.. دع الأمور تمضي.. وفكر في نفسك..».

- «أنا لا أخاف إلا الله يا «نور»..».

هتف في حدة:

- «أيها الأحمق، إذا سقطت فستدوسك النعال ولن يبكي عليك أحد.. لقد مزقوا أحمدو بيللو وزوجته إربًا إربًا وأحرقوهما بالنار.. وها هو تشوكوما يعيش دون أن يمسه أحد.. الكبار هنا كالدمى التي تحرك خيوطها أيد خفية فوق مسرح للعرائس.. أفق إلى نفسك..».

موجة من اليأس تجتاح الناس في كل مكان، هذا ما يبدو للناظر، لكن الحقيقة غير ذلك، إن عنف الضربة يوحي دائمًا بالانتظار والترقب، لكن اليأس لن يكون.. هذا ما أعتقده..

وذات مساء هم.. «نور» في أذني:

- «إنها تبعث إليك بتحياتها..».

- «مَنْ؟».

ضحك ملء شدقيه، وقال:

- «الإمبراطورة..».

أدركت أنه يعنى «جاماكا»، وذكر «جاماكا» هذه المرة يثير فى نفسى الآلام، أليست من الأيبو؟ وبنو قومها وقعوا فريسة فى يد المخطط الاستعمارى الصهيونى ليعبثوا بأمن البلاد وحرمتها..

- «لا تذكر اسمها أمامى».

هز كتفيه فى سخرية، وقال:

- «وما ذنبها؟».

- «أنا لا تربطنى بها أدنى رابطة».

ابتسم وهو يرمقنى بنظرات ذات معنى، وقال:

- «تصور أنها تعانى من الألم من أجلك.. فهى تعلم أن ما حدث سوف يكون سيئ الأثر عليك.. هى تصلى من أجلك..»

قلت: «لاشك أن لها نفوذًا كبيرًا الآن..».

- «وأى نفوذ يا صديقى.. لقد صافحها إيرونسى بنفسه يوم زيارته للمستشفى حينما كان يجامل الجرحى..».

وهتفت فى غيظ:

- «كنت أعتقد دائمًا أن طراز حياتها لن يجعل منها أنثى طيبة محترمة . . ».

- «الغريب أنها تذوب شوقًا لرؤياك لولا أنك أسأت إليها . . ».

لوحت بيدى فى غضب :

- لا أريد أن أراها . . ».

- «تسطيع أن تحل لك كثيراً من المعضلات . . ».

- «أعوذ بالله . . أنا لا أعتمد إلا على الله . . »

وأخبرنى أحد معارفى فى اليوم التالى أن الشبهات تحوم حول صديقى «نور»، وأن هناك شكًا بأنه يتعاون مع السلطات الجديدة ويشى بالشرفاء من أبناء المدينة، كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على نفسى، إن «نور» مهما انحرف وعبث فلن يسقط فى هذا الشرك القذر، وفكرت فى الأمر مليًا، ووصلت فى النهاية إلى أن مثل هذه الظروف القاتمة تصنع الشكوك، وتثير الريب، وتوقع الكثير من الناس فى البلبلة وتقضى على الثقة بين الأحباء، وإلا فكيف يكون الصديق فخًا للصديق؟ هو فقير . . وثائر على الأوضاع . . ومتعطل تعصف به أعاصير الضيق والتمرد، لكنه لا يمكن أن يبيع نفسه فى هذه السوق الشائنة . . وقررت أن أناقشه الأمر فى أقرب فرصة . . غير أن هذه الفرصة لم تتح لى فقد سمعت فى المساء

طارقًا يدق بابى، وما أن فتحت الباب حتى وجدت شرذمة من العسكر يرأسهم ضابط من الأيبو، وما أن رأونى حتى أمسكوا بى ووضعوا الأغلال فى يدى، وانتشر بعضهم فى أنحاء البيت يجوسون ويجمعون الأوراق، ويقلبون الفراش، ويفتحون الخزائن بحثًا عن السلاح..

كانت هذه أول مرة أنزل فيها ضيفًا على أحد السجون.



١١

لم يراودنى أدنى ندم أو خوف بالنسبة لما كنت أؤمن به، ودخلت السجن شامخ الرأس لا أكترث لما قد أتعرض له من آلام، الشىء الوحيد الذى ضايقنى هو أننى لم أستطع أن أقوم بدور فعال إزاء المحنة، فقد كان الوقت ضيقًا، وكان الناس يعانون من الارتباك وآثار المباغتة المحزنة، وكان السجن يغص بعدد كبير من الرجال أغلبهم من الضباط والعسكر وعلماء الدين وكتاب الصحف والمؤلفين . . يبدو أن أية محنة يكون وقودها دائمًا من صنفين رئيسيين هما الشباب وحملة الأقلام، الشباب بصفائهم وحماسهم ونقائهم العقائدى، والكُتّاب بما يحررون من آراء، وبما يجنحون إليه من نقد ومعارضة، ولا يكاد الكاتب يفلت من قبضة الطغيان إلا إذا باع نفسه للسلطان، وجعل من فكره وأدبه عبيدًا مسخرين له، وشعرت بقدر غير قليل من السعادة وأنا وسط هذه المجموعة من الرجال الذين رفضوا الانحراف، وأعلنوا رفضهم فى قوة، أنا لا أنكر أن فيهم الكثيرين من ذوى الاتجاهات

والمذاهب المتباينة، ولكنهم جميعًا يلتقون تحت هدف واحد، ألا وهو النهوض ببلادهم فى ظل الحرية والوحدة والعدالة، قد تختلف صورة العدالة، وقد يضع بعضهم للحرية مواصفات خاصة، لكنهم لا يقصدون سوى الخير لوطنهم، أمر آخر وهو أن غالبية الموجودين من يؤمنون بزعامة الشهيد أحمدو بيللو وصدق نواياه، وإخلاص قصده، ولذا كان السجن مجالاً لدراسات مستفيضة عن أوضاع الوطن السياسية والاقتصادية، وعن الأعداء الذين يتربصون به الدوائر، وعن تصور الوضع الذى سيكون عليه المستقبل.. لكن الدماء التى أريقت فى شوارع المدن والقرى فى نيجيريا، وخاصة ضد المنتمين لقبائل «الهوسا» خاصة والمسلمين عامة- وهم الأغلبية الساحقة فى دولتنا الاتحادية- تلك الدماء كانت تملأ قلوب الكثيرين بالغيظ والضيق، وخاصة بين الضباط والعساكر المحبوسين.. ووجدت أثناء سجنى فرصة طيبة لمزيد من القراءة والعبادة، غير أن رجلاً مثلى تعود الأسفار والتجارة بين شتى أنحاء البلاد لا شك أنه كان ينتابنى من وقت لآخر ضيق بتواجدى فى هذا الحيز الضيق.. وكان يسمح لبعضنا أحيانًا بالزيارة، ولم يكن يهمنا فى مثل هذه الزيارات سوى جمع الأخبار، وخاصة السياسية منها، وعقب أية زيارة لأخ من الإخوة المحبوسين، كنا نحيط به ونتجمهر حوله ونسأله عن المزيد من الأنباء، ونجلس لنحلل هذه الأنباء ونضيف عليها ما يشاء خالينا المتوثب الطامح، ويخيل إلىّ فى كثير من الأحيان أن البلاد على وشك أن تندلع فيها ثورة

مباغتة تقضى على المجرمين، ولكن الأيام تمر، والصبر يطول، ونحن خلف الأسوار نتململ. .

وابتدأت الانتفاضات فى الخارج على هيئة تجمعات صغيرة كانت الحكومة العسكرية تضربها بشدة، وأخذ ذلك ينعكس علينا داخل السجن، إذ بدأ المسئولين يسيئون معاملتنا، بل ويتعرضون لنا بالضرب والسخرية والقسوة. . وللأسف كان يشرف على اضطهادنا ضابط من الأيبو ليس فى قلبه رحمة. . وكان التمرد داخل السجن يعنى مخاطرة كبرى قد تقضى علينا جميعًا فى مثل هذه الأيام الحرجة، أقول ذلك لأن بعض السجناء فكروا فى الاصطدام مع الحراس، وإثارة المعركة، لكن العقلاء من الرجال رفضوا هذه الفكرة بشدة وبينوا أخطارها الماحقة. .

وآلمنى جدًا أن بعض المواطنين فى الخارج كانوا يتعاونون مع سلطات الأمن الظالمة، وذكرت أسماء كثيرة منها «نور» وكان المتحمسون منا يقسمون أغلظ الإيمان على الانتقام منهم عندما تتاح الفرصة ويفرج عنهم، ويتركون هذا السجن الذى أصبح مسرحًا للتعذيب والاضطهاد.

وكنت أتذكر صداقتى «النور» وأحاول أن أتعمق تصرفاته وسلوكه وخاصة فى الأيام الأخيرة قبيل سجنى، بل أكد لى بعضهم أنه هو الذى قد وشى بى. . الله وحده يعلم ما أصابنى من

غم وحزن، لم أكن مكتئبًا؟ لأنه تسبب فى سجنى، بل لأنه قد انحرف هذا الانحراف الخطير، ووقع فى تلك الخيانة المرذولة . .

لكن ما أعجب الأيام!!

فوجئت ذات يوم بـ«نور» فى السجن . . يا إلهى!! ماذا جرى؟

كانت الكدمات تملأ جسمه، والدماء تنزف من أنفه، وآثار السياط تبعث فى نفسى الأسى.

ما أظلم الناس حينما لا يتحرون الحقيقة!!

ضممته إلى صدرى فى حنان وكأنى أعتذر له فى صمت بليغ، تلاقت نظراتنا فى عتاب، هل هناك شىء يمكن أن يقال؟ وطأطأت رأسى فى خجل، وتمتمت:

- «لقد قسوا عليك . . ».

قال دون اكتراث:

- «ليكن . . إننى أتعذب طول حياتى . . ».

- «سيعوضك الله خيرًا كثيرًا . . ».

ورأيته يهز كتفيه فى اشمئزاز، وقال:

- «أنا لا أتكلم عن الله، ولكن يشغلنى الظلم الماحق الذى يذل البشر، ويمرغ أنوفهم فى الأوحال . . ».

لم تصادف كلماته رضى لدى، فقلت:

- «الإيمان بالله أولاً . . ».

- «لم نكفر به، ولكن القضية الآن بيننا وبين الطغاة . . ».

- «بإرادته يتم كل شيء يا نور . . ».

- «أتراه سبحانه يحمل السلاح عنا؟».

- «جل شأنه . . يوم «بدر الكبرى» أرسل جنودًا لم يرها أحد . . ».

- «أتقارننا يا عثمان بالصفوة الممتازة من صحابة الرسول . . ».

كان واضحًا أنه يعاني من أزمة نفسية لعلها بسبب ما عاني من تعذيب، وما تعرض له في حياته من إجحاف وإهمال، ومع ذلك فإني أؤمن دائمًا أن عزاءنا الوحيد هو الله، الله هو الذي ينصرنا في حربنا . . في سلمنا، في السجون وخارج السجون، إنه سبحانه يهيئ الأسباب، ولا بد أن يصدق وعده مع المؤمنين الصادقين.

قلت في شرود:

- «ومع ذلك يا «نور» فيمكن أن نلتقي على معنى مشترك، فالله ينصرنا إن نحن أخذنا بأسباب النصر من استعداد ويقظة وصبر وكفاح واستعداد تام للتضحية في سبيله . . ».

هز رأسه موافقًا ثم قال :

- «هل معك سيجارة؟» .

- «تعرف أننى لا أدخنها . .» .

- «رأيت أحد المسجونين يدخن عندما دخلت . .» .

- «لا تجعلنى أساعدك فى أمر أراه محرمًا . .» .

ودار بنظراته الحزينة الحائرة فى أنحاء المكان ثم قال :

- «فى السجن على الأقل لن أفكر فى طريقة للحصول على الطعام . .» .

واستدركت قائلاً :

- «لم تخبرنى لماذا ساقوك إلى السجن . .» .

- «السبب نفسه الذى من أجله أتوا بك إلى هنا» .

كنت أريد المزيد، غير أنى أحجمت عن طرح مزيد من الأسئلة فى هذا الشأن؛ لأنه كان عازفًا عن الخوض فيه . . ونظر إلى طويلاً ثم قال :

- «ألم يأت أحد لزيارتك . .» .

- «أبدًا . .» .

وشرد لحظات ثم عاد يقول :

- «هل نبقى هكذا طول العمر . . » .

- «الأيام تدور ، ولا شك أن الأمور تتغير . . » .

ضحك فى سخرية ، وقال :

- «وكيف تتغير؟ أتظنها تفعل ذلك تلقائيًا؟ إن من يرفع رأسه تخمدها ضربة مجنونة ، أو تدفع إلى غيابات السجون . . » .

- «إن الملايين التى تربو على الخمسين لن تستلم لهذا الحيف» .

قال وقد احتقن وجهه :

- «الفقراء الجائعون لا يصنعون نصرًا . . أنت واهم» .

قلت فى حدة :

- «إذن فأنت لا تعرف حقيقة شعبنا . . » .

وعاد يهز رأسه ، ويقول :

- «أعرفه جيدًا . . اسمه سالامس ساحل العبيد . . وأذاقه الاستعمار ألوان العسف لمئات السنين . . وعندما نال استقلاله . . أخذ ينتحر ويقتل ويبدد شمله . . أعرف شعبى لأنى أعرف نفسى أنا مجرد ضائع . . حزين . . بلا عمل . . تشوى السياط جسدى كما كانت تشوى أجساد أجدادى الذين كانوا يشحنون كالحيوانات فى السفن إلى الدنيا الجديدة . . هذا أنا وهذا هو شعبى . . » .

أزعجتنى كلمات «نور» اليائسة، كنت أظنه قد جاء إلى السجن إنسانًا جديدًا، صهرته الأحداث، ومحصته التجربة المربوة، وأراد أن يشارك بدور فعلاً فى صنع المستقبل لأمته، وها أنا أراه محطمًا تافهًا لا يصلح لشىء..

قلت وقد تغيرت نبرات صوتى، وبدا الغضب على وجهى:

- «ماذا بك يا «نور»؟».

وأدرك ما أعانيه من قلق وضيق بسببه، وفهم أننى لا أقر أسلوبه فى الجدل، ولا أحترم أفكاره التى تنحو منحى التشاؤم والاستسلام، فابتسم وقال:

- «هل غضبت؟».

- «ليس هذا أسلوب رجل محترم يفكر فى خلاص وطنه..».

وابتلعت ريقى ثم استطردت:

- «أعرف أن فى بلادنا كثيرًا من الظلم والقصور، لكننا شعب أصيل يملك الإيمان بالله، ولديه الإمكانيات الضخمة التى يطمع فيها الجميع، ومن ثم فإن الله لن يضيعنا..».

نظر إلىّ بعينين متعبتين متوسلتين، وقال:

- «لم أنم منذ ليلتين.. لعنة الله عليهم.. ولقد عدت إلى الخمر التى لا أجدها الآن..

حتى الحصول على السيجارة أصبح مشكلة . . » .

ثم تنهد فى حسرة، وقال :

- «لقد كرهت الناس جميعًا . . تصور إنهم يتهمونني بالخيانة . . ما فائدة أن أناضل مع فئة تشك فى إخلاصى وتطعنني فى أعز ما أملك . . الناس ينسون يا عثمان . . إن العدو يحاول أن يفتت وحدتهم، ويمزقهم إربًا إربًا، حتى يحطمهم من الداخل . . وحتى ينتصر عليهم دون أن يشهر السلاح . . لهذا اندفعت كمجنون وأخذت أسب وألعن إيرونسى وتشوكوما والجيش والحكام الجدد . . كنت كالمجنون تمامًا . . لم أفعل ذلك عن دافع وطنى . . ولكن لأثبت للناس أننى أستطيع أن أضحى . . وأن كلام الناس سخف وانحطاط . . » .

واستطاع «نور» بمرور الوقت، وبما أغدقته عليه من رعاية ومساعدة أن يقترب من الهدوء النفسى، والرضى القلبى، ونسى الخمر والتدخين، وكنت أراه يتوضأ ويقف إلى جوارى فى الصلاة . . وفى أثناء حملات التعذيب التى كنا نتعرض لها، كان يتلقى الإساءة من العسكر بغير قليل من الصبر والإيمان، فتغيرت الفكرة عنه كثيرًا، واستعاد الناس ثقتهم به كما استعاد ثقته بهم، وأخذ يشاركنا فى الفكر والدراسة والنظر فى أمر المستقبل . .

وقال «نور» ذات يوم:

- «ألا ترى أن الجلاّدين لا يعذبونك بالقدر الكافى؟».

- «لا أفهم ما ترمى إليه».

- «كان المتوقع أن يصلبوك أو يزيدوا فى مضايقتك..».

- «لم أفكر فى شىء كهذا يا «نور» إنهم يضربون ضربات عشوائية..».

نظر إلىّ طويلاً بطريقة جعلتنى أرتبك، ما معنى ذلك؟ هل يقصد «نور» أننى أحد عملائهم؟ وأخذت أضحك فى بلاهة، إذ إن توارد مثل هذا الخاطر على ذهنى يجعلنى أبدو وكأننى قد قبض على متلبسًا بالجريمة، مع أننى برىء تمامًا من أى ظن سيئ..

- «عثمان أمينو.. زيارة خاصة..».

وعجبت لهذا الأمر أيما عجب، فليس لى أم ولا أب ولا أخ، ولا أظن أن لى أقارب لهم سطوة فى ظل الحكم العسكرى الجديد كى يتوسطوا لى فى زيارة خاصة لا ينالها إلا ذوو الشأن.. وكرر السجان اسمى مرة ثانية، فتأكد لى صدق الخبر..

وأعددت نفسى للذهاب إلى المكان المخصص للزائرين، لا بد أن أغسل وجهى جيدًا، وأرتدى «الدامر» المزركش والطاقية الجميلة، على الأقل يجب أن أبدو صامدًا قوى الإيمان، وأن أخفى

ما بجسدى من آثار الضربات، وقال لى السجان وهو يرافقنى إلى مكان الزيارة:

- «حذار أن تتكلم عن سوء المعاملة هنا.. أنت تعلم عقوبة من يخالف الأوامر.. مفهوم؟».

- «مفهوم».

وتذكرت أن «نور» عند سماعه لنبأ الزيارة كان يضحك فى سعادة من كل قلبه..

●●●

١٢

لا شك كنت متعجبًا لمثل هذه الزيارة، لكنى بعد فترة من التفكير أمكننى أن أخمن من القادم، إن الشيخ عبد الله لا يترك أبناءه الدراويش هكذا دون أن يسأل عنهم، من عادته أن يسأل عنا أو يرسل إلينا من يطمئن على أحوالنا، ثم إنه يرعى سرنا فى غيبتنا، هذا هو شأن الإخوان فى الله، ثم إن بقايا حزب مؤتمر الشمال يحاولون التجمع بعد الضربة القاصمة، ويبحثون عن شبابهم وزعمائهم المطاردين، وزائرى لن يخرج عن واحد من هذه الجهة أو تلك.. وأبى السجان العنيد أن يخبرنى من الزائر وإن كان هذا مخالفًا للنظم والقوانين، وكيف ألجأ إلى القوانين فى وقت عصيب كهذا..

حينما دخلت غرفة الزيارة، ما كنت أتخيل قط أن تكون زائرتى «جاماكا».. آه.. شعرت بارتباك، وخجل كبيرين العيون السوداء التى أرّقت ليلى طويلاً، ولم ترحم نهارى بأحلام اليقظة.. كانت فتنتها أضعاف ما كنت أعرف.. ونظرت إليها مشدوهًا، وجمدت

لدى الباب . . وفتحت ذراعيها واقتربت منى ، لكن يدى امتدت إلى ذراعيها وأمسكت بهما فلم تتمكن من العناق . .

قلت فى جفاء مصطنع :

- «إننى أصبحت أمقت كل الأيبو» .

ابتسمت ونظراتها تعبر عن الاحتجاج ، وقالت :

- «أردت أن أثبت لك أن كثيرين من الأيبو عكس ما تصورت» .

وحانت منى التفاتة إلى ضابط السجن القصير المكفهر الوجه ، فعلق على الفور قائلاً فى غيظ :

- «أنت سليط اللسان لا تعرف للياقة معنى» .

صحت فى غضب :

- «أنا أرفض هذه الزيارة . . » .

هب من فوق كرسيه قائلاً :

- «اذهب إلى الجحيم . . » .

تمنيت أن أهوى على رأسه بكلتا يدى ، لكننى استطعت أن أتصور ما سوف يعقب ذلك ، سوف ينتقمون منى بطريقة مهينة أمام «جاماكا» ، وسوف تتعقد الأمور أكثر ، والسجين فى أغلب الأحيان

عاجز عن أن ينتقم لكبريائه رهن الأسوار العالية . . واستدرت فى حركة عنيفة مزمعًا الخروج ، لكن «جاماكا» أمسكت بيدى فى تشبث ، وعاد الضابط يصيح :

- «دعيه يعود إلى زنزانته . . » .

قالت «جاماكا» وهى ترمقه فى امتعاض :

- «إن معى تصريحًا بالزيارة من «إيرونسى» نفسه ، ولا بد أن تتم الزيارة ، ولعلى لا أبالغ إذا أصررت أن أكون معه وحدى . . » .

وبدا الموقف مثيرًا يقترب من أزمة حادة ، وعادت «جاماكا» تقول :

- «أعتقد أن مخالفة أوامر القائد تعنى خطورة بالغة . . » .

وانتفض ضابط الأيبو ، وجمع بضع الأوراق وهرول تاركًا الغرفة والغضب يرعش جسده كله ، وابتسمت «جاماكا» وقادتنى إلى مقعد صغير ، وجلست إلى جوارى . .

- «كنت قلقة عليك . . » .

- «ليس هناك ما يدعو إلى ذلك» .

- «عندما تحتدم الفتن لا يفرقون بين صغير وكبير . . » .

- «الأمر بالنسبة لى مجرد ضريبة أؤديها لله والوطن . . » .

تنهدت فى شىء من الارتياح، وهى تقول:

- «لم تحدثنى عن رحلتك إلى الأيبو».

- «نحن الآن فى السجن..».

- «لكنى كنت أنتظر أخبارك..».

وشردت وأنا أحملق فى سقف الغرفة الصغيرة:

- «كادت رحلة رائعة عبر القرى والغابات.. ودعونا إلى الله.. وأسلم على يدينا خلق كثير.. هل يضايق ذلك؟».

قالت فى دهشة:

- «أبدًا.. أبدًا.. يسعدنى ذلك..».

والتفت إليها فجأة، وقلت:

- «لماذا جئت؟».

- «ألسنا أصدقاء؟».

- «من قال ذلك؟».

- «قلبى..».

وشعرت بدقات قلبى تلهث وتتسابق فى روعة، دارت عيناى فى حيرة، وما زلت أتطلع إلى السقف العالى، وهمست:

- «لماذا لا تنظر إلىّ؟».

- «لى النظرة الأولى كما أفهم من دينى، وما عداها وزر..».

- «الوزر حسبما أعتقد فى النظرات الآثمة المتشهية..».

كدت أبتسم للباقتها وذكائها، لكنى هربت قائلاً:

- «إن زيارتك تثير تساؤلات كثيرة..».

- «لماذا يا عثمان؟».

- «هل نسيتِ ما فعله الأيبو؟».

- «لقد جئت أزف إليك بشرى غالية..».

وهنا التفت إليها قائلاً:

- «ما هى؟».

- «سيحدثك عنها شيخك عبد الله».

- «لا أفهم شيئًا..».

- «لقد اعتنقت الإسلام..».

وقفت وصحت فى دهشة:

- «غير معقول..».

- «لقد درست.. وسمعت.. وسألت.. ووجدت إجابات شافية لكل ما أريد.. ولهذا آمنت.. كنت أنت السبب..».

قلت في حزن:

- «هل آمنت من أجلي..».

- «كنت أنت السبب.. وعرفت عن طريقك أن هناك نقصًا في عقيدتي.. لا تكتمل العقيدة إلا بالمقارنة.. وقارنت بين عقيدتي الوثنية الأولى.. ثم المسيحية.. ثم الإسلام.. وهكذا أسلمت.. لا لأتزوجك.. ولكن لأن الإسلام حق..».

وتذكرت الكلمات الخالدة «لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها..»، وفاض قلبي بسعادة غامرة، وفي لحظات نسيت المآسي التي دبرها الأيبو بتحريض من الاستعماريين والمبشرين ودعاة الانفصال.. وغمغمت:

- «هذا شيء يثلج الصدر حقًا..».

وغشيتها موجة من الانفعال، وتبللت عيونها الجميلة بالدموع، وقالت:

- «لقد بكيت كثيرًا من أجل أحمدو بيللو».

وسادت فترة صمت أردفتها هي بقولها:

- «وعندما أسلمت طردوني من المستشفى الذي كنت أعمل

به . . خرجت هائمة على وجهى . . بحثت عنك قالوا فى السجن . . أصبحت بين الأيبو الذين يعيشون فى الشمال كالمنبوذة . . لقد ظن المتصرون أن بأيديهم مفاتيح الرزق . . وقال لى الشيخ عبد الله عندما ذهبت إليه «لا تحزنى يا ابنتى . . فالرزق مكفول . . بشراك إن وضعت قدمك على أول الطريق الصحيح . . »، وقدم لى كل عون . .

تمنيت فى هذا الوقت أن أعقد قرانى عليها، وأن أضمها إلى صدرى وأغرق عينيها الجميلتين ووجهها المشرق الحى بالقبلات، لكن القيود القديمة التى لا ترى شلت حركتى، وبقيت أضحك وأثرثر كالأبله، كان قلبى يضيق بالفرحة، ولم أكن أستطيع أن أعبر بطريقة سوية عما كان يجيش فى صدرى من أفراح . .

وسمعتها تقول :

- «كنت أفكر فى طريقة أخرجك بها من السجن، ولذا ذهبت إلى إيرونسى القائد بواسطة أحد معارفى القدماء ولم يكن يعرف أنى أسلمت، واستطعت أن آخذ موافقة بالزيارة . . والأكثر من ذلك أنه وافق على الإفراج عنك إذا ما وقعت على هذه الوثيقة . . ».

وأخرجت «جاماكا» من حقيبتها الصغيرة ورقة، ونشرتها أمامى كانت السطور عبارة عن تعهد بأن أؤيد الثورة الجديدة، وأتبرأ من

كل ماض سياسى، وأن أسير فى ركاب الحكم الجديد..

زاغت نظراتى، ثم أمسكت بالورقة ومزقتها إربًا إربًا وأنا أقول فى عصبية:

- «تريدين أن أبيع نفسى للشيطان..».

- «بل أريدك لى..».

- «وكيف تقبلين رجلاً تخلى عن مبدئه وشرفه..».

- «أريدك أن تبتعد عن السياسة.. ونعيش نعبد الله فى حب..».

وابتسمت والعرق البارد يتقاطر على جبينى:

- «ليست العبادة صومًا وصلاة وذكرًا فحسب.. ولكن المساهمة فى تخليص المظلومين عبادة.. والانتصار لكلمات الله عبادة.. ونشر العدل والحرية عبادة.. إن شيخى لم يجد الوقت الكافى لكى يشرح لك كل ما يجب أن تعرفينه عن الإسلام..».

قالت وهى تخفض رأسها فى حسرة:

- «كنت آمل أن تخرج أنت وتكمل لى الحديث عن الله..».

ودخل ضابط الأيبو، وقال:

- «لا.. غير معقول.. لقد طالت الزيارة أكثر مما يجب..».

هبت واقفة والدموع فى عينيها، كنت أعرف أن لديها تساؤلات كثيرة، لكن الظروف والوقت لا يسمحان، قالت وهى تتجه صوب الباب وتنظر إلىّ فى أسى بليغ :

- «ماذا قلت يا عثمان . . ».

وابتسمت هذه المرة ابتسامة حقيقة تعبر عن كل ما يجيش بقلبى، وأدركت على التو معنى سؤالها، فقلت :

- «أجل . . ستتزوج عندما يفك الله أسرى . . ».

ورأيتها تضحك والدموع فى عينيها، وكادت تتعثر وتنكفئ لدى عتبة الباب، لكننى أمسكت بها فى آخر لحظة، فلم تصب بسوء، وبقيت أنظر إليها وهى تبتعد . . لقد امتلأ قلبى بحبها وأخيراً عدت فى صحبة السجان إلى الحجرات الضيقة الكئيبة الفاسدة الهواء، وإخوة السجن يثرثرون ويتناقشون بصوت حاد . . وما أن رأونى حتى هرولوا صوبى فى لهفتهم المعهودة، وهم يقولون :

- «الأخبار . . ».

زممت شفتى ثم قلت :

- «لا جديد . . ».

وبدا على وجوههم اليأس والضيق، إنهم يريدون أن يسمعوا

أي شيء، يريدون أن أروى لهم بعض الشائعات، بل إن بعضهم يريد أن أكذب عليهم وأروى لهم بعض الأخبار المطمئنة التي يدبجها خيالي . . إنهم يفجعون إذا فاجأهم أحد بالحقيقة المرة، يخيل إليّ أن كثيرين من المضطهدين والمعذبين يحاولون الهروب من الواقع، وقد يكرهون الحقيقة . . يتلذذون برسم عالم من الوهم والخيال تجرى فيه الأحداث على هواهم . . وجدتني أقول لهم في شيء من الثقة :

- «تأكدوا أن النصر قريب . . » .

ألف سؤال بمعنى واحد انهالت على :

- «وكيف عرفت؟» .

ووجدت الزملاء أنفسهم لا يتركون لي فرصة للإجابة على تساؤلهم، بل تطوع كثيرون منهم بالقول «الزائر شخصية كبيرة وقد أسر لعثمان ببواطن الأمور، عثمان لايستطيع أن يكشف النقاب عن مثل هذه الأمور الخطيرة . . استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» .

وصاح واحد منهم :

- «أعطوا الفرصة لعثمان كي يتكلم . . » .

وانتقلت كلماتي البسيطة العامة، التي ليس لها دلالات خاصة

محدودة، والتي لا تخرج عن كونها مجرد أمنيات رجل يؤمن بربه ويثق بنصره، وانتقلت هذه الكلمات من فم إلى أذن، ومن هذا إلى ذاك، وتضخمت وكبرت، وأصبحت كالحقيقة المؤكدة القريبة الوقوع، وطوال هذا الوقت لم أجد فرصة أعبر فيها عن الحقيقة، وفي المساء أوى الجميع إلى فراشهم وعلى ثغورهم ابتسامات آملة..

مال على «نور» هامسًا:

- «هل أتت « جاماكا» لزيارتك؟».

قلت متعجبًا:

- «كيف عرفت؟».

- «كانت تبحث عنك، وأخبرتني أنها تريد زيارتك.. لكني سخرت منها وضحكت..».

- «لماذا؟».

- «أمرها عجيب يا عثمان.. ما كنت أتصور أنها ستجن بك لهذه الدرجة..».

- «وهل عرفت أنها أسلمت؟».

- «أنت تمزح يا عثمان..».

وهب من جلسته، ووقف مبهوتًا، وقال مستطردًا:

- «إنى لا أصدق.. لقد كانت تبشر بالمسيحية بين المرضى.. وكانت تحدثنى عن ذلك أملاً فى أن أرتد عن دينى..».

وشرحت لـ«نور» كل ما جرى، وهو لا يكاد يصدق ما أرويه له كان يعتقد أن انتصار إيرونسى وتشوكوما وعصابات الأيبو فى الجيش تعنى التمكين لهم والحركات التبشير والنشاط الإسرائيلى ولم يكن يتصور أن تسلم فتاة مثل «جاماكا» وهى تنتمى الآن للطبقة التى تحكم وتسود.. وقلت فى شرود:

- «عندما أخرج يا «نور».. فسأتزوجها.. وسأتعلم منها كيف أعطى الدواء بالمحاقن، وكيف أعالج عيون المرمدين والمحمومين.. وسنفتح بابنا لفقراء المسلمين الذين تزدريهم المستشفيات التبشيرية..».

وقال «نور» وقد بدا على وجهه غير قليل من الكدر:

- «ستتزوجها إذن؟».

- «ولِمَ لا؟».

- «ما كنت أتصور أن يحدث ذلك».

- «امرأة فتحت قلبها لنور الله، فكيف أغلق بابى فى وجهها؟».

- «أهى التى طلبت الزواج؟».

- «أنا أحبها يا «نور» . . » .

- «كنت أدرك ذلك . . » .

وسمعت ضجة بالخارج ففزعنا، ووجدنا صفًا طويلاً من المسجونين الجدد يساقون داخل مبنى السجناء، يا إلهى ها هو عبد الرحيم بينهم . . ثم من هذا؟ إنه شيخى عبدالله يسير فى المقدمة . . وجريت صوبه، ولم أعبأ بركلات السجانة وقبضاتهم القاسية وهى تهوى على رأسى وجسدى، واختطفت يدى شيخى لأقبلها وأغرقها بدموع الحب والفرح . .



١٣

أنا لا أطرب إذ أرى الناس يساقون إلى العذاب، ومع ذلك فقد امتلأ قلبي بسعادة كبرى وأنا أرى شيخي يدخل السجن، حاولت أن أتعمق مشاعري في هذه النقطة بالذات، فوجدتني أمام عدة تفسيرات . . أولها: أن الإنسان يحس بشيء من الاعتزاز وبمزيد من الثقة حينما يرى أن قائده يتعرض لمثل ما يتعرض له، إنه نوع من المساواة في تأدية فريضة الجهاد، وثانيها . . أني كنت كثيراً ما أشعر بأن شيخي بمنزلة العم والأب، ووجوده إلى جواري يمدني بالحنان، ويسبغ عليّ مزيداً من الأمن، وثالثها: أنني أرى أن حركة المقاومة ضد الطغيان تنمو وتكبر، وأشاهد ذلك في تكاثر عدد الذين يساقون إلى السجن، وخاصة الرؤوس الكبيرة المفكرة أو التي كانت تحكم أو التي كانت تقود حركات النضال النظيفة، وربما تكون كل تحكم هذه الأسباب مجتمعة . . مضافًا إليها ما اعترى وضع «جاماكا» من تغيير هي التي أدت إلى ما ينبض به قلبي من اعتزاز وسعادة ويقين.

وتلقيت عبد الرحيم بالأحضان، كنت أحبه وأشعر أنه إنسان طيب صافي القلب ذو ذكاء فطرى، وإخلاص غير مصطنع، وكانت هناك مجموعة كبيرة من السجناء تتحلق حول الشيخ عبد الله فى الأوقات التى يسمح فيها باللقاء الحر، غير أن الأمور لم تكن تسير فى مجراها الطبيعى، إن أحلامى الكبرى تصطدم من آن لآخر بحقائق، ووقائع مريرة فلقد حدثت ظاهرة جديدة لم نكن نألفها فى السجن، كنا منذ دخلنا حتى ذلك الوقت نكاد نكون على قلب رجل واحد، وكان هذا مظهراً من مظاهر قوتنا وإصرارنا على السير فى الطريق، غير أن بذور خلاف قد نبت بين السجناء السياسيين كما يسموننا، فقد ظهر بضعة أفراد يجاهرون بما يعانون من ملل وضيق، ويعلنون تشاؤمهم، ويزعمون أنه لا فائدة من المقاومة أو الإصرار على موقفنا، إذ إن حركة المقاومة- فى ظنهم - لا تحرز أى تقدم، وأن الحكومة الجديدة قد أحكمت قبضتها على البلاد، وأن هناك تأييدًا خارجيًا يدعمها ويحرسها، ومن ثم أعلنوا رأيهم فى الموقف بصراحة، وهو أنه لا بد من التفاهم مع الحكام الجدد، والنزول على رأيهم، وإعلان التأييد لهم، حتى تفرج عنا، وتدعنا ننصرف إلى حياتنا وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المنشقين كان قليلاً بحيث لا يزيد على أصابع اليدين والرجلين عدآ، إلا أنهم هددوا أمن المجموعة سلامتها، وأحالوا أيام السجن إلى كدر وحزن

شديد . . وتطور الأمر إلى مناقشات حادة، والمصيبة الكبرى أن «نور» قد انضم إليهم، قلت لـ«نور» :

- «كيف تجرؤ على هذا التصرف؟» .

- «قال : لا سلطان لأحد على . . أنا حر . . » .

- «لكنها قضية شعبنا يا «نور» . . » .

- «أنتم تخدعون أنفسكم كما خدعت نفسى بالأمس . . ليست هناك قضية . . هناك صراع على الحكم، ومن الحمق أن أشترك فيه . . فلن أكون وزيرًا فى يوم من الأيام . . وأنت كذلك . . نحن وقود لأطماع الزعماء» .

آلمنى حديثه، كنت أرى على وجهه ملامح شخص آخر غير «نور» الذى كنت أعرفه، لم يكن يخجل أو يخاف عندما يصرح بآرائه، وبلغت النذالة مداها، حينما طلب ورقًا وأقلامًا ليكتب التماسًا لرئيس الحكومة أعنى الحاكم العسكرى العام، كنت أتحرق غيظًا وغمًا، قلت له :

- «تستطيع أن تعيد النظر فى الأمر . . » .

- «قررت أن أحيا لنفسى . . أن أمارس حياتى فى الخارج على أى وضع . . لم يعد لأى شىء قيمة . . » .

- «أنت جندى فى جيش الحق يا «نور» . . » .

قهقه بصوت مرتفع، وقال:

- «الملايين فى الخارج تستمتع بوجودها . . لماذا أنا وأنت بالذات نهرع إلى ارتكاب الحماقات؟ لو كنت مكانك لأسرعت بتقديم اعتذار مكتوب كى أخرج . . إن «جاماكا» تنتظرك . . ».

وشرد بضع لحظات ثم قال فى صفاقة لم أعهدها فيه:

- «أتعرف أننى كنت أحبها . . ».

صرخت فى دهشة:

- «ماذا؟».

- «نعم . . كنت أحبها . . لكنها رفضتنى. كانت تسخر منى لست أدرى لماذا . . وعندما عرفتك وجدتها تهرول إليك كالمجنونة . . كانت على استعداد أن تكون جارية لك . . هناك أشياء كثيرة فى الحياة لا يمكن تفسيرها . . أتعتقد أن هناك فئة من الناس خلقت للشقاء يا عثمان؟ ولماذا يشقى قوم ويسعد آخرون؟».

قلت له وأنا أتمالك أعصابى:

- «هل شربت كاسًا؟».

ضحك فى امتعاض، وقال:

- «يا ليت . . لكن عندما أشتاق للخمر ولا أجدها أبدو وكأنى سكران . . أتخبط وأهذى كالمحموم . . ».

- «ألا تذهب لتصلى بضع ركعات؟».

- «إننى أهرب من مواجهة ربى..».

- «لكنه معك أينما كنت يا «نور»؟؟».

- «أتظنه يا عثمان كان معى وأنا أتسكع جائعًا عاريًا بلا مأوى والتعاسة تطحننى بلا عمل ولا مال ولا حبيبة؟».

أمسكت بذراعه وهتفت:

- «استغفر الله يا «نور»..».

- «ذنوبى أكثر من أن يمحوها استغفار..».

- «أنت مريض..».

- «وهذا هو عزائى.. ألست تقول إنه ليس على المريض حرج..».

- «لكنك يجب أن تفعل شيئًا طيبًا يا «نور» يجب أن تصمم على أن تخرج من محنتك.. كلنا نعانى بطريقة أو بأخرى، لكننا نصبر ونصمد وننتظر نصر الله..».

قال فى حدة:

- «لأنكم حمقى..».

وهممت أن أصفعه، لكنى تماسكت، الداعية إلى الله يجب أن يكون على قدر كبير من التسامح والصبر وإلا ما استحق أن يحمل شرف الرسالة العظمى. . وانتزع «نور» نفسه من مجلسى وانصرف.

كانت الورقة والقلم فى يده، وكان يتجه هو وبعض المنشقين نحو غرفة قائد السجن. . وفجأة انقضت عليهم مجموعة من المتحمسين، وأشبعوه هو ومن معه ضربًا. . كانت مأساة مؤلمة، دماء الإخوة المظلومين تسيل وتمتزج، لقد تيقظت الفتنة، ورأيت ضابط الأيبو يقف خلف زجاج النافذة داخل حجرته يبتسم فى سعادة، ومنع السجانة من التدخل لوقف النزيف، كان يتمنى أن تستمر المعركة، ويزيد النزيف، وتتمزق أواصر الإخوة فتنهى المقاومة، وتفرغ الحكومة الجديدة من المناوئين. . ورأيت شيخى عبد الله يشرق برجهه الطيب. . واقتحم المعمعة كفارس تقليدى معمم دون تردد أو وجل، وصرخ صرخة اهتزت لها جنبات السجن:

- «كفوا أيديكم أيها الإخوان. . ».

وأصيب الصراع الحامى بالشلل، وتوقفت الأيدى والعصى والأرجل، ووقف كل فى مكانه، وارتمى فى ساحة المعركة رجلان يئنان من الجراح وشدت الأعين والأسماع إلى الرقعة الصغيرة التى

كانت تشتعل خلافًا ووحشية منذ لحظات، وتجلى الشيخ فى الوسط كينبوع من الصدق والشجاعة والحب والإيمان، ونادى بأعلى صوته:

- «يا أبنائى الأعزاء.. كلكم أبنائى.. إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار.. هذا ما قاله نبيكم ﷺ.. ومن قديم كانت المعركة الأصلية هنا - وأشار إلى قلبه- فمن انتصر على نفسه الأمّارة بالسوء.. دانت له الدنيا، وخضعت له رقاب الجبابرة.. النصر آت لكنكم قوم تستعجلون، والموت لا بد آت ففيم الخوف، والجنة مُعدّة للمتقين، فلم تهرولون إلى النار.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.. قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله..».

كان وقت العصر قد دخل، وسمعت صوت أحد السجناء يؤذن بصوت ندى شجى «الله أكبر.. الله أكبر..»، وما أن انتهى الأذان حتى أخذ الجميع يلتحقون بالصفوف فى هدوء..

ووجدت «نور» للأسف- ممسكًا بالورقة متجهًا صوب غرفة القائد، وفى نظراته جنون، ومن جرح فى جبهته تسيل قطرات من دماء.. كنت أعانى وقتئذ من حزن شديد..

وقضينا ليلة عصيبة تؤرقها الذكريات الدامية، وفى صباح اليوم التالى كان الشيخ عبد الله يقول لنا:

- «ابحثوا عن الجانى . . » .

وبعد لحظات جاء أحد السجانة، واستدعى «نور» وطلب منه أن يجمع حاجاته، فأسرع على التو بجمعها، وقال العسكرى :

- «لقد صدر أمر بالإفراج عنه . . » .

وهز الشيخ عبد الله رأسه قائلاً :

- «علمت من مصادر يوثق بها أن نوراً هو الجانى . . ما أبشع الفارق بين اسمه وفعله . . هو «نور» . . وقلبه يمتلئ بالظلام . . صدق الشاعر العربى القديم إذا يقول :

وأسميته صالحًا فاغتدى
بضد اسمه فى الورى سائرا
وظن بأن اسمه ساترًا
لأعيابه فغدا شاهرا

وهكذا الدنيا يا أبنائى تخدع قصار النظر . . لو نظرنا إلى بعيد لوجدنا على الشاطئ الآخر نعيمًا مقيمًا . . لكن عيبنا أن بعضنا مصاب بقصر النظر . . وهو على أية حال ليس مرضًا خلقيًا كالذى نعرفه . . انحراف يعالج بالرياضة الروحية . . رددوا معى جميعًا هذه الكلمات «أستغفر الله، وسبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر . . » . قلوها ألف مرة .

وجلس الجميع كخلية النحل وقد غمرها الطنين، كانت العيون مسبلة والقلوب معلقة بالله، وكل شيء عظيم أو مخيف في هذه الدنيا يتضاءل ويضمر أمام دفقات الإيمان التي تغمر القلوب والأرواح . . وقطعنا رحلة روحية ممتعة، غبنا فيها عن سخافات الوجود، وأحزان الواقع، لنعود إلى هذا الواقع وقد تزودنا بقوة لا ترهب الحديد والنار وعار السجانين . . وعلمنا من بعض السجانة بعد أيام أن «نور» قد ظهرت صورته في إحدى الصحف، وأدلى بحديث لمحررها، زعم فيه أن المعتقلين السياسيين يعيشون في أمن واطمئنان تحت رعاية الحكومة الجديدة، وندموا على ما فعلوا، وسيفرج عنهم في وقت قريب، كما علمنا أن «نور» يرتدي الفاخر من الثياب، وأصبح موظفًا محترمًا، وأنه يقضي سهراته في الحي الجديد من المدينة يسكر ويعربد.

ترى هل ظن المسكين أنه قد وجد الحل الصحيح لمشكلته؟

ومتى كانت الخيانة طريقًا للأمن والسعادة والاستقرار؟

وقال شيخي:

- «انظروا إلى السماء . . نحن في آخر الشهر العربي . . والظلام دامس . . والنجوم تقاوم الظلمة . . لكن لا تنسوا القمر . . سوف يسطع عم قريب . . واذكروا أن بعد الليل نهارًا . .

هكذا الدنيا . . ولكنكم قوم تستعجلون . » .

قلت فى مرارة :

- «يا شيخى . . الطغيان يتوطد . . والسفلة يسودون . . » .

وابتسم ، وقال :

- «عندما يعجز البشر . . تأتى سفينة نوح . . أو تنقض صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . يا أبنائى . . ارفعوا راياتكم الخطراء واكتبوا عليها : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] ، والله سبحانه لا يخلف وعده . . ما دمنا مؤمنين . . » .

وطال بنا المقام فى السجن ، وقد حرص شيخنا على أن يرغب السجناء فى حفظ القرآن الكريم وقراءة تفاسيره ، كما دعاهم إلى القراءة المستمرة ، وتثقيف أنفسهم ، واستغلال بعض الوقت فى ممارسة الألعاب الرياضية من جرى ووثب وحفلات للسمر البرىء ، وكنا نتحلق حوله فى الأمسيات وكيف انتشر الإسلام فى بلادنا ، وكيف تسلل المستعمرون إلى ديارنا ، وأحالوها إلى سوق للعبيد . . وكيف أن ديننا هو دين العزة والوحدة والكرامة والحرية . . وأن الاستمساك به هو الطريق الوحيد إلى النصر . . وكنا نستمع إلى حكاياته القديمة والحديثة وكأننا أطفال تسحرهم

حكايات الجدات والجدود.. نقبل عليها فى نهم، ونروى بها ظمأنا إلى العدل والحب والحرية والمثل العليا.

يا لها من أيام جميلة برغم ما شابها من أحزان!!

إننى أتذكرها الآن بعد أكثر من سبع سنوات فيخفق قلبى، وتشدنى الذكرى، وأهيم فى جنباتها وأستنشق عبيرها السحرى ما أحلى أيام الكفاح!!

●●●

١٤

كان الله فى عونك يا «جاماكا»!! لشد ما عانت فى هذه الفترة العصيبة من أهوال، هذا ما روته لى فيما بعد، لقد ضاقت فى وجهها كل السبل وخاصة بعد أن سجن الشيخ عبد الله، وبعد أن أصبح معروفًا أنها قد اعتنقت الإسلام طاردتها المؤسسات التبشيرية فى عنف، لاحقتها بالتهديد والتخويف، فى وقت ارتفعت فيه رايات الأيبو والقوى المسالمة للاستعمار، إن جل المستشفيات فى يد الكنيسة، والكنيسة غاضبة عليها، ولذا كان من الاستحالة بمكان أن تجد عملاً فى مستشفى آخر بعد أن فصلت من المستشفى الأول، وأصيبت المسكينة بما يشبه الصدمة، لقد علمها القساوسة والرهبان فى البداية أن الدين محبة وتسامح وحرية، وأنه يرفض التعصب والعنف، ويقدس كرامة الإنسان، لكنها الآن ترى بعينها انهيار القيم التى حدثوها عنها فى قرى وغابات الأيبو من قديم، ابتساماتهم الحلوة تحولت إلى تجهم وتكشير عن أنياب الغدر، كلماتهم الرقيقة أصبحت زجرًا وسبابًا، لمسات الحنان انقلبت إلى

دفع وقسوة . . حاربوها فى رزقها حتى كادت تموت جوعًا . . وتمتم «جاماكا» :

- «كان إسلامى اختبارًا لماهية المبادئ التى يتشدقون بها ، إنهم متعصبون حمقى تحركهم نزوات حيوانية تشبه الحيوانات فى الغابات ، لم أعد أشك فى أن هذه الموسسات التبشيرية لا تعرف الكثير عن الله أو الإنسان ، إنهم مجرد تجار . . جنود فى جيش كبير يخدع العالم ، ويمهد لانتهاب ثرواته ، والسيطرة على مقدراته . . ما أبشع الفارق بينهم وبين حبيبى . . عثمان إنسان نبيل يعرف الله حق المعرفة . . المصيبة الكبرى أنهم دفعوا إلىّ ببعض جواسيسهم كى يغرونى بالمال تارة ، وبالزواج تارة أخرى . . جاءنى مرة دكتور «هانيمان» . . وهو طبيب ومبشر فى أكبر مستشفى بالعاصمة . . كان هانيمان ثلجى المظهر ، الابتسامة لا تفارق ثغره ابتسامة دائمة لا ترتخى أبدًا ، لكنى أكرهها . . إنه يرتدى هذه الابتسامة كما يرتدى حذاءه ، ويخلعها عندما ينام . . لحظات خاطفة كنت أرمقه وهو وحده . . فينسى نفسه . . وتختفى الابتسامة ويحل محلها بريق شيطانى ، ووجه مكفهر . . يبدو أنه كان يمل التمثيل الطويل الذى طبع عليه . . وهو يتقاضى مرتبًا كبيرًا من مجلس الكنائس الأعلى فى أوروبا . . غير متزوج . . أقول جاءنى إبان محنتى وهمس فى أذنى :

- «أنت لطيفة جدًا يا «جاماكا» . . » .

- «أشكرك . . » .

- «منذ أن رأيتك تشتغلين هنا وأنا أرمقك من طرق خفي» .

هززت رأسي قائلة :

- «أعرف . . » .

ضحك ، وقال :

- «حسنًا . . وآمنت أنك فتاة طيبة . . » .

- «لم تقل لي هذا من قبل . . » .

- «الرجل يستطيع أن يكبت عواطفه نحو المرأة . . لكن إلى حين . . » .

والتفت إليه قائلة :

- «ماذا تريد مني بعد أن طردتني من العمل . . » .

- «أنا لم أطردك . . » .

نظرت إليه في دهشة ، وازدادت دهشتي حينما سمعته يقول :

- «فقط أردت أن أحتفظ بك لنفسي . . » .

هتفت :

- «كخادمة» .

ضحك وحاول أن يلمس يدى ، ففررت منه لكنه قال :

- «بل أردت أن أتزوجك» .

صرخت :

- «تتزوجنى؟» .

- «نعم . .» .

- «انظر إلى وجهى جيدًا . . إننى سوداء . . إفريقية من ساحل العبيد . . هل نسيت؟» .

- «كلنا إخوة يا «جاماكا» . .» .

- «هل نسيت أننى مسلمة؟» .

- «هذا أمر بسيط يمكن التغلب عليه» .

- «كيف؟» .

- «تتركين هذه الخرافة . .» .

صعقت لجرأته ، وهممت أن أصفعه ، لكن يدى لم تتحرك ، لم يتعود الأسود أن يصفع الجنس الأبيض ، حتى كنائسنا كانت لنا خاصة . . للسود كنائسهم وللبيض كنائسهم فى أغلب الأحيان ، وقلت فى سخرية :

- «من قال ذلك يا دكتور هانيمان؟».

- «لا يعقل أن تتركى المسيحية هكذا ببساطة.. لقد ظلت الكنيسة تعلمك وتعظك وتدربك سنوات طويلة..».

- «أنا لم أبع نفسى للكنيسة.. لست رقيقًا.. إننى إنسانة وأختار ما أؤمن به..».

لم يرتح لكلماتى، اختفت الابتسامة المصطنعة، واكفهر وجهه، واحتقن جلده الثلجى، وصرخ وهو يقهقه:

-«هل ظننت فعلاً أننى أريدك زوجة؟ كان مجرد مزاح..».

- «كنت أعرف أنكم بلا قيم محترمة..».

نظر إلىّ بعينى وحش مفترس:

- «ستدفعين الثمن غاليًا..».

- «أنا لم أرتكب جرمًا..».

- «لم يزل كل شىء بأيدينا..».

- «الأمر بيد الله..».

- «والله معنا..».

- «ولقد شوهت معنى الألوهية فى أفكاركم، وخلطموها

بنزواتكم . . أنتم لا تعرفون الله . . فقط تحسنون الكلام، وتجيدون الزيف والتمثيل، أنتم أساتذة الخديعة . . » .

ولم تجد «جاماكا» مفرًا بعد أن طال احتجازى خلف الأسوار سوى أن تهرب من المدينة إلى مدينة أخرى، لقد ذهبت إلى «زاريا» وغيرت اسمها ورداءها، أصبح اسمها «سعيدة» ولبست «اللابا» و«البوبا»، وتحجبت، وذهبت لتخدم فى قصر أرملة لثرى كبير، وهناك نعمت بغير قليل من الهدوء والاستقرار، وتعلمت الفرائض من صوم وصلاة، وبعض المبادئ الأولية فى الإسلام وروت لها الأرملة الحاجة الكثير عن الأراضى المقدسة وقصص الأنبياء وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وكرامات الأولياء إذ إن الكثيرين من أهل نيجيريا يعشقون التصوف والمتصوفين، ولديهم كثير من الأقاصيص عن رجال الله قد تبلغ فى كثير من الأحيان مبلغ الخرافات التى لا يصدقها عقل . .

وكانت تتساءل من وقت لآخر عن الأحداث التى تهز البلاد، وحركات المقاومة والاغتيالات التى أصبحت تبث الرعب فى القلوب .

كانت تشعر بحلاوة الصبر، وجلال الإيمان فى هذه الأسرة الهادئة، ولم تكن تتصور أن العيون تتابعها عن كثب وأن الحقد التبشيرى يلاحقها . . كان عجيبًا أن يهتموا بفتاة من الأيبو لا وزن

لها هذا الاهتمام كله، لكن القضية على ما يبدو لم تكن كذلك . . كان اعتناقها للإسلام يعنى الهزيمة لهم ولجهودهم، ويعنى السخرية منهم ومن سلطتهم . . ذات مساء دق الباب رجل من الشرطة :

- «نريد «جاماكا» . .» .

- «ليس عندنا أحد بهذا الاسم . .» .

- «تلك هى صورتها الفوتوغرافية . .» .

دقق الحارس النظر، وقال :

- «هذه سعيدة . .» .

- «هى بعينها «جاماكا» . .» .

- «لكن لماذا تسأل عنها . .» .

- «هى متهمة بالسرقة والتبديد . .» .

- «مستحيل . . إنها كالملاك البرىء . .» .

قهقه رجل الشرطة :

- «الحمد لله أنها لم تغرر بكم . .» .

وسيقت المسكينة بين النواح والعويل والتوسل إلى الحبس التحفظى، لقد حزنت ربة البيت من أجلها، لكنها لم تستطع أن تحميها، وأمام دموع سعيدة وتوسلاتها وكلت الأرملة محاميًا للدفاع عنها . .

وعلى الرغم من أن سعيدة - أو «جاماكا»- كانت محجوزة خلف الأسوار بتهمة مخلة بالشرف إلا أنها أكدت لى فيما بعد أنها كان تشعر بسعادة لا حد لها، كانت تدرك بوضوح أن ما تتعرض له من عنت وعناء كله ظلم بيّن، وليس هناك من سبب لهذا كله سوى إسلامها . . لقد بلغت مرحلة التضحية والإيذاء فى سبيل الله، لكم حدثتها ربة البيت عن بلال الحبشى وما قاساه من صنوف العذاب، وعن زينب بنت الرسول الأعظم التى أجهضوها وهم يضربونها، وعن نساء كثيرات فضليات فى فجر الدعوة الإسلامية، إن سعيدة تشعر بالإيمان، وتجد فى العقاب راحة نفسية لا حد لها . .

قال لها المحقق :

- «أنت متهمة بسرقة عدد من الآلات الطبية من المستشفى وبعض الأدوية الغالية الثمن والمسجلة عليك فى دفتر العهدة . . والدكتور هانيمان يتهمك بسرقة حافظة نقوده أثناء تواجده فى غرفة العمليات الجراحية فما قولك . . » .

وابتسمت سعيدة قائلة :

- «إنهم يكذبون . . القصة بدأت منذ . . » .

وأخذت تروى تفاصيل كل شىء وبعد أن انتهت من حديثها زجرها المحقق وهو من قبائل الأيبو مثلها، وقد تلقى تعليمه فى

المدارس التبشيرية، ثم أكمل دراسة الحقوق فى بريطانيا، زجرها المحقق قائلاً:

- «إن هناك ثلاثة من الراهبات الممرضات يشهدن ضدك..».

هتفت فى ذعر:

- «راهبات؟ مستحيل.. إنهن لا يكذبن».

- «أنت إذن لا تطعنين فى شهادتهن.. وهذا يدينك..».

- «يا إلهى..!».

- «اعترفى.. هذا أفضل..».

وعادت بها الذكريات إلى الوراء عندما اعتنقت النصرانية، وتركت الوثنية، لم تتعرض لشىء من الزجر أو الاضطهاد، بل على العكس تمامًا من ذلك، فقد فتحت الإرساليات التبشيرية لها الباب على مصراعيه، وهبتها فرصة التعلم والتوظف، وانهالت عليها الهبات، وكانت تحظى دائمًا بمزيد من الرعاية والاهتمام، أما بعد أن اعتنقت الإسلام فلقد أصبح الأمر جد مختلف، أغلقت الأبواب فى وجهها، وألصقت بها التهم، وحوربت فى رزقها وشرفها، وجند لها عدد من القذرين لملاحقتها والبحث عنها وها هى تقف الآن على أبواب السجن.

قال المحقق:

- «هيه فيم تفكرين؟ ألم تتعلمى أن الاعتراف يغسل الذنوب..».

- «بل تعلمت فى دينى الجديد، أن الندم المقرون بالتوبة، والذى يتبعه عمل صالح هو الذى يمحو الخطايا.. مجرد الاعتراف لا يعنى شيئًا..».

هز المحقق رأسه، وقال:

- «إذن أنت تقرين بالسرقة..».

- «أقول إن الذين يحاولون إلصاق التهمة بى إنما هم المجرمون..».

ثم أمسكت بذراع المحقق وهتفت قائلة:

- «هم يجرمون فى حق وطننا، وحقك أنت أيضًا كرجل قانون.. وأخيرًا فى حقى أنا المظلومة..».

وانهمرت دموعها غزارًا، وطأطأ المحقق رأسه، وهمس:

«جففى دموعك.. معذرة يا «جاماكا»..».

هتفت من بين دموعها:

- «اسمى سعيدة..».

- «معذرة يا سعيدة . . أنا لست كاهنًا أو قسيسًا يربت على رأس الخطاة، ويجلب لهم الغفران . . أنا رجل قانون، أتعامل بالقرائن والشهود والأدلة . . قد تقعين تحت طائلة العقاب ظلمًا . . لكن لا حيلة في الأمر . . ولهذا فأنا أصدر أمرًا بحبسك رهن التحقيق . . » .

وتمتمت سعيدة في هدوء :

- «إن في قلبي شعورًا من الابتهاج لا يعرفه إلا المؤمنون الحقيقيون . . » .

نظر المحقق إليها نظرة طويلة وغمغم :

- «سأصلي من أجلك . . » .

- «أنا أعرف الصلاة جيدًا . . وليس بيني وبين الله وساطات . . إنه رب السود والبيض . . أشعر به سبحانه أقرب إليّ من حبل الوريد . . وسأنتظر رجلي حتى يعود . . وعندما يعود عثمان . . ستورق حياتي بأجمل الأحلام . . وستبتسم لي الزهور . . ونغني للحب الحقيقي . . وللسعادة . . » .

●●●

١٥

كانت بلادى تجتاز فترات عصيبة من تاريخها الممتلئ بالشجن، والذكريات، السذج والجهلاء يسقطون فى حبائل الشيطان، فيؤججون نار الفتنة والانتقام، والقتلى فى كل مكان والحكومة العميلة تورث الأحقاد، وتبث الفرقة، ونحن نعيش فى السجن لا نستطيع أن نغير وضعًا، أو نسهم بجهد عملى فى تحويل الأحداث، والحكام الجدد يضربون فى حمق وجنون، لم يعد لهم من هدف سوى أن يبقوا على كراسى الحكم، وشغلتهم هذه الغاية عن كل شىء آخر يتعلق بأمن الوطن وسلامته.. أما قضايا الأمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فقد أصبحت مجرد شعارات وخطب يتسلى بها الحاكمون، وغدت وعودًا لا تغنى ولا تسمن فانتشر الفساد، وعم اليأس وبدت البلاد وكأنها مريض يعانى من مرض عصبى، تتناوبه التشنجات، أو يغرقه الذهول أو يسيطر عليه الهذيان، ولم يعد هناك أدنى شك فى أن العسكر الحاكمين أصبحوا لعبة فى أيدى القوة الاستعمارية الخفية

والظاهرة، ذلك الانتكاس الوطنى سوف يعانى شعبنا منه طويلاً لا شك؟ لأن بذور الفساد والضياع التى يدسها الخونة فى أرض المجتمع سوف تنبت أسوأ الثمار، وحتى لو خلع هؤلاء الخونة، فسيبقى أثرهم بعد حين، وسيتطلب الخلاص من عبثهم وقتًا ليس بالقصير. . ولم يعد لشعبنا من قضية بالتالى سوى أن يتخلص من هذه الشرذمة الحاكمة، إيرونسى وبطانته، وتحولت قضية الوطن بكاملها إلى صراع على السلطة، وهل فى استطاعتى وأمثالى أن تحول مجرى الأحداث هكذا ببساطة وسرعة، إنه لأمر يحتاج إلى نضال طويل ومستمر، هكذا ما يجب أن أوطن عليه نفسى منذ الآن.

ولاحظت أن شيخنا «عبد الله» يحدثنا دائمًا عن الصبر، ويحاول أن يفسر لنا معناه الشامل المحيط، فليس الصبر كما يقول مجرد استسلام ورضى بالواقع، ولكنه فترة عمل وتفكير وتدبير دون تعجل جنى الثمرة، وليس الصابرون كتلاً من الأحجار، أو تماثيل صماء، ولكنهم أولاً وأخيراً رجال مؤمنون يصمدون للعواصف، ولا تزعزهم النكبات، أو تؤنسهم الكوارث، أو تنسيهم الاضطهادات الغاية الكبرى التى نذروا أنفسهم من أجلها، وكان يقول:

- «عاش نوح عليه السلام يدعو بين قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولم يكن الطوفان شراً، بل كان عملية تنقية لشوائب. . وكان

اختياراً . . لم يرغم نوح أحداً على الركوب فى سفينته . . اختار الأشرار مصيرهم، وهدى الله الأخيار إلى مصير آخر . . وعندما قال الله :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

- «عندما حدث ذلك . . ولد مجتمع الصفوة الطاهر التى يعرف حق الله . . ».

قلت لشيخى فى شىء من الضيق :

- «ومتى يأتى الطوفان يا مولاى؟».

-﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦، ٧].

- «أنصبر كما صبر نوح عليه السلام؟».

ابتسم شيخى فى رضا، وقال :

- «سبحانه وتعالى . . كل شىء عنده بمقدار . . ».

- «آمنت بالله . . ».

ولم تكن أيام السجن تمر هادئة دائماً دون عواصف، فقد كانت تجد أحداث مزعجة بعض الشىء، فهناك تاجر يعيش معنا وصلته أنباء أخيراً، تؤكد له أن تجارته قد بارت، وأنه قد فقد رأس ماله، وجاء إلى شيخنا يبكى :

- «انظر يا مولانا.. لقد ضاع تعب العمر كله فى لحظة.. خسرت كل شىء.. غدر بى الصديق، وخاننى الشريك.. وأصبحت لا أملك شيئًا..».

قال شيخنا فى هدوء:

- «أنت تعرف الطريق».

- «أنا لا أعرف سوى أننى قد أصبحت مفلسًا..».

- «أنت تعرف الطريق».

- «أى طريق يا مولانا..».

- «ستبدأ من جديد.. المؤمن الحق لا يفكر فى الفقر والغنى بقدر ما يفكر فى أن يسير فى الدنيا على هدى أوامر الله.. وهذا هو معنى أنك ستعيش فى رغد دائم..».

- «أما كان الأفضل يا شيخى أن أبتعد عن هذا العناء وأسهر على تجارتى، وأستطيع بذلك أن أساهم بقدر مادى أكبر فى المعركة..».

وتربع شيخنا وأخذ يرتل بضع آيات من القرآن الكريم، تشرح للمؤمنين كيف أن الآباء والأبناء والأموال والتجارة التى نخشى كسادها، إذا كان هذا كله أحب إلينا من الله ورسوله وجهاد فى سبيله.. فقل على الدينا العفاء، ثم قال الشيخ:

- «التجارة الحقة هي الجهاد في سبيل الله . . » .

ثم اتجه شيخنا مرة أخرى إلى السماء ورفع كفيه وهتف داعيًا :

- «اللهم لا أسألك الرزق فقد فرغت منه، ولكنى أسألك البركة فيه..» .

تلك صورة من صور الأحزان التى يعمر بها سجننا القاسى المظلم، وهناك من فقد فرصة التعليم، وتعطل عن اللحاق بجامعته فى الخارج، ومعنا بعض الطلبة الذين يتلقون العلم فى الأزهر وفى جامعة الزيتون وغيرها، هؤلاء جميعًا منعوا من السفر وسيقوا إلى السجن، وهناك من طلبت زوجه الطلاق، وهناك من تشرد أهله بعد أن حبس عائلهم الوحيد فمضوا فى الطريق يبحثون عن عمل كى يقتاتوا من ورائه . . وإلى جانب هذه الصورة القاتمة، كانت توجد قصص للبطولة والفداء تدعو إلى الشرف والفخار .

كانت هذه التجربة -أعنى دخول السجن- تجربة ثرية، مليئة بالأحداث والانفعالات والأفكار، كانت شيئًا جديدًا فى حياتى ترك فى نفسى آثارًا لا تمحى إلى الأبد، إن الأيام التى أقضيها خلف الأسوار تعنى «مرحلة تعليمية» من طراز آخر غير الذى يعرفه الناس، يخيل إلىّ فى بعض الأوقات أن الذين لم يدخلوا السجن فى سبيل المبدأ قد فاتهم خير كثير، أعنى قد خسروا نوعًا من

المعرفة أو التجربة لن يجدوه فى أى مكان آخر ، حتى ولو نالوا من الشهادات والإجازات الدراسية أعلاها ، أو قرأوا آلاف الكتب . .

قلت لشيخى :

- «أكان من الضرورى أن يساق يوسف عليه السلام إلى السجن؟؟» .

- «إرادة الله لا تناقش يا عثمان . . ولا تسألنى مرة أخرى أكان من الضرورى أن يباع بدراهم معدودة ويصبح عبداً . . كل ما يمكننى قوله هو أن الابتلاء هو الآخر نعمة قد ينعم بها الله على عباده الصالحين . . العبرة بالطاعة . . العبرة بالنتيجة . . » .

وسادت فترة صمت قال شيخى بعدها :

- «ألا يمكن أن تكون الفتنة التى تعرض لها يوسف على يد زوجة العزيز أعنف من ليالى السجن ، وأشق من أيام العبودية بالسبة ليوسف؟» .

قلت فى دهشة :

- «لا أعرف . . » .

- ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] .

- «ودانت ليوسف رحاب مصر ، أتدرى لماذا؟» .

- «لماذا؟».

- «كان في سجنه الأسود يدعو إلى الله، ويقول: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

تمتمت في استسلام:

- «الله الواحد القهار..».

- «أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق».

- ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٤٣].

وجيء بالطعام ونظر إليه شيخي، وقال وهو يبتسم:

- «أخاف أن أشبع فأنسى الجائع... هكذا كان يقول يوسف يا أبنائي.. وأنا اليوم صائم..».

ثم وثب شيخي، ونادى بأعلى صوته:

- «سقط إيرونسي وتشوكوما.. والمتمردون».

واحتشدنا حوله في انبهار، وقلت:

- «ماذا؟ هل حدث ذلك فعلاً؟».

ابتسم الشيخ، وقال:

- «لقد سقطوا منذ زمن بعيد».

- «لكنهم مازالوا يحكمون يا شيخي. . ».

وأشار شيخي بيده اليمنى قائلاً:

- «انظروا. . هذه الأسوار. . وأبراج الحراسة. . والعسكر يحملون السلاح. . وصراخ المعذبين يتردد صداه. . آه. . أنتم لا تنظرون إلى بعيد. . عيونكم دائمًا على المعسكر والأسوار الشائكة وسياط الجلادين. . انظروا إلى بعيد. . لقد سقطوا جميعًا منذ أن انتهكوا حرمة الإنسان. . وداسوا الشريعة. . كل من تنكر إلى الله. . ولإخوته من البشر. . أصبح ساقطًا. . ».

ثم التفت صوبي، وقال:

- «أي عثمان. . اذهب إلى قائد السجن وقل له نريد أن نصلي الجمعة. . ».

- «أنت تعلم يا شيخي أنه رفض ذلك من قبل الآن. . ».

- «حسنًا. . فلسوف أذهب إليه بنفسي. . ».

الحقيقة إننا توجسنا خيفة، لم نكن نريد أن يعرض الشيخ عبد الله نفسه لهذا الأمر المحرج، فقد يعتدى الطغاة عليه بالكلام الجارح أو يضربونه، وأصبحنا نرتجف، ولم يكتم بعضنا نقده الشديد لهذه

الخطوة من الشيخ، لكننا لم نستطع أن نواجه الشيخ برأينا صراحة احترامًا لرأيه.

عندما ذهب لقائد السجن نظر إليه القائد شذرًا، وقال:

- «ماذا تريد؟ لن نستطيع أن نفعل لك شيئًا بالخارج..».

- «بل جئت أطلب الصلاة..».

- «نحن لا نمنعك ذلك..».

- «اليوم الجمعة..».

- «لا مانع.. على أن يكون بدون خطبة..».

ابتسم شيخنا:

- «الخطبة.. ركن أساسي.. بدونهما لا تكون صلاة الجمعة..»

وكم كانت دهشتنا عندما قال القائد:

- «أريد أن أقرأ الخطبة أولاً..».

- «لماذا؟».

- «لأطمئن على أنها ليس بها أية مسائل سياسية..».

- «حسنًا.. ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١، ٣].

واستمر الشيخ يرتل سور «يس» وما أن انتهى منها حتى قال :

- «هذه هي الخطبة . . مضافًا إليه بعض الأركان والشروط الخاصة بشكل الخطبة . . » .

قال الرجل دون أن يفهم شيئًا يذكر :

- «لا مانع . . المهم ألا تذكروا شيئًا عن الحكومة أو إيرونسي . . » .

- «لك ذلك . . » .

- «وكان هذا أول حشد يكتمل فيه فى السجن، التقى كل الرجال بشتى أفكارهم وآرائهم السياسية، وأخذ شيخنا يحدثنا طويلاً، وكانت كلمته تنفذ إلى قلوبنا، وكنا نستمد من كلماته كل ما نريد، وكانت انعكاسات الخطبة، ومدلولاتها الرمزية أوقع بكثير من الكلام المباشر عن وضعنا ووضع شعبنا . . وكانت الدموع تسيل على خدودنا وشيخنا يردد فى دعاء الخطبة :

- «اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا» .

- اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه..» .

- «اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا» .

«وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا..» .

«وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا..» .

«اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه..» .

«وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..» .

«اللهم آمين..» .

إننى كلما سمعت مثل هذه الكلمات الطيبة أشعر بها تنفذ من أذنى إلى قلبى، تتمشى فى عروقى، وتملأ كيانى كله، وأتمنى فى هذه اللحظات أن يسمعها مثلى كل إنسان أعرفه أو لا أعرفه، ودائمًا أدعو الله أن يستظل البشر كلهم بظل الإيمان. . ولهذا كنت أتمنى أن تكون «سعيدة» إلى جوارى، وتنعم بهذه الخيرات التى يفيض بها لسان سيدنا ومولانا الشيخ عبد الله .

●●●

١٦

جاءتنى رسالة من «سعيدة»، يا إلهى . . لم أكن أصدق أن ذلك سوف يحدث فى يوم من الأيام، روت لى فيها الكثير مما كنت أجهله، ولقد حمل إلىّ الرسالة أحد العسكر، وهو من قبائل الهوسا، حملها خفية، ولست أدرى هل فعل ذلك تطوعًا أو تقاضى ثمنًا باهظًا عليها؟ هذا لا يهم الآن لقد فرحت أيما فرح بهذه الرسالة، وذهبت إلى مكان منعزل كى أقرأها على مهل، وأسعد بقراءتها، الرسالة الخاصة بالنسبة للسجين شىء ذو قيمة كبرى . . ونكون أكثر قيمة عندما تأتى ممن أحب . . وجلست أقرأ الرسالة :

«أيها الحبيب الغالى . .

إن معاول الندم تضرب رأسى كل مساء، أقول لنفسى دائمًا لماذا لم ألحق بركب عثمان منذ أن عرفته؟ لماذا تأخرت عن الارتباط به؟

لكنى أعود وأقول : إن لله حكمة قد تخفى علينا نحن البشر الضعفاء، ولكل أجل كتاب . . أنا لم أيأس برغم ما أعانى من

عذاب واضطهاد، ولقد فكرت ألف مرة قبل أن أبعث إليك بهذه الرسالة؟ وذلك لأنى لا يصح أن أبعث إليك بما يعكر صفوتك، أو يبعث الضيق فى نفسك . . لكن موقف صديقك «نور» كان غريبًا غاية الغرابة منذ البداية، فمنذ أن عرفته أعطف عليه، ربما لم ألاحظ ما عليه من تعاسة، وما ألمحه فيه من سخرية محببة وخفة دم، وحاول هو أكثر من مرة أن يستغل هذا العطف، ليحمله أكثر مما يحتمل، توهم أننى أحبه، وهذا ما لم يخطر ببالى قط، وعندما عرفتك وجدته يتقبل الأمر بشىء من عدم الاكتراث، بل اعتبره نوعًا من الموضوعات الطريفة التى تجلب المرح والتسلية، لكنى فوجئت به ذات مساء بعد أن قررت أن أشهر إسلامى، وأخطط للزواج منك، فوجئت به يأتى إلىّ ويقول:

- «لقد خلقنا الله لكى نعيش معًا إلى الأبد».

= «لا أفهمك . . يا «نور» . .».

- «جاماكا . . أنا أحبك . .».

وابتسمت له، وقلت:

- «لكن الأمر لا يتعلق بى».

- «أعرف . . تحبين عثمان؟».

- «هذا حق، والأمر يتعلق بقلب الإنسان».

- «إنه لا يصلح لك».

ذهلت عند سماعى لهذه الكلمات من صديق عزيز عليك، عندئذ رأيت أن أكون حازمة وواضحة أكثر، فقلت له:

- «كل ما فى الأمر إننى أحبه ولا أحد غيره..»

- «تعلمين يا «جاماكا» إنه سجين ومستقبله مظلم، وهو إنسان مغلق.. أورثه التعصب للدين ضيقًا فى الأفق..».

اكفهر وجهى، وهتفت:

- «أنت تطعن صديقك».

- «أنا أحبه... وهذا هو رأيى فيه..».

- «أنت لا تعرف جيداً لماذا يتحاب الناس، ألا يجوز أن مثاليته هى نقطة الجذب فيه، ومع ذلك فهو إنسان منفتح ذو قلب.. رحب الفكر..».

وبدا على ملامحه الغضب، وقال:

- «إن ما تظنينه سعادة ما هو فى الواقع إلا حماقة وتعاسة..».

ووجدتنى أقول له:

- «أنت آخر من يصلح لكى يكون زوجًا..».

انصرف عنى محتداً، ومع ذلك لم يكف عن ملاحقتى،

وتسبب لى فى كثير من المتاعب، فى الواقع هو إنسان غريب ذو نزوات، يدوس القيم بكل ببساطة، وتأكد لى أنه ضالع فى التعاون مع أجهزة الأمن والاستخبارات الحاكمة، وأشيع عنه الكثير، وأصبح الناس الذين يعرفونه يمقوته أشد المقت، وعزمت أن أخبرك بالأمر فى زيارتى لك، لكنى أحجمت فى آخر لحظة وكان يمكن أن يظل الأمر طى الكتمان، لولا أن انتقامه قد تعدى كل تصور، أكنت تعتقد أنه قد تقدم يدلى بشهادته ضدى فى القضية الظالمة التى دبرها دكتور «هانيمان» وعملاء الإرساليات التبشيرية، نظر فى صلافة وجرأة، وقال:

- «رأيتك بعينى هاتين تبيعين الأدوية والآلات».

يا إلهى، كيف يخون عطفى عليه، ويتنكر لصداقته معك، لكن الذى يبيع نفسه للجلادين لا يستغرب أن يفعل ذلك، غير أنى شعرت بأسى بالغ ومرارة قاتلة، وعاد يقول:

- «وكان عثمان يستخدمك فى بعض تحركاته ضد الدولة تحت ستار انتمائك للأيبو، وعملك مع التبشير..».

- «أنت تعرف.. أن هذه كلها ترهات يا «نور»..».

- «وأنت لا تستحقين أى عطف أو تضحية..».

- «أن تظلمنى بلا مبرر».

- «سأحطم حياتكما . . أنت وعثمان».

- «عثمان لم يسئ إليك».

قهقه قائلاً:

- «كان غنيًا . . وكان ينظر إلىّ كتابع . . وكان عطفه يثيرنى أكثر مما يبعث على الاحترام والحب . . ».

- «لا ذنب له . . فأنت حاقد مريض . . ».

ونظر «نور» إلى المحقق قائلاً:

- «سجل . . أنها تسبنى . . . وأنا أطالب بحقى . . ».

وجلست طوال الليل لا يقرب النوم جفنى، المظلومون يحترقون بنيران المظالم صباح مساء، ويكاد يفقدون الثقة فى كل شيء، لو كنت داعرة عربيدة، مستسلمة لذوى القوة والسلطة لكنت أميرة ألبس تاجًا من التقدير والاحترام، مجتمعاتنا تسوده قيم قذرة فى هذه الفترة التعسة، ولكنى واثقة أن الخير لا يموت، وأن العذاب الذى نعانى منه مصيره إلى الانتهاء، وأعود أنظر إلى قضيتى فلا أجد لما أعانيه من سبب سوى أننى أخترت طريقى فى العقيدة التى آمنت بها، واخترت الرجل الذى أحببته . . أيمكن أن يكون ذلك جريمة أو إساءة إلى أحد؟

سؤال حائر ظل يتردد فى رأسى حتى أذهب عنى النوم، وأورثنى القلق، لم أر شيئًا قبل ذلك فى حيانى كالذى أراه اليوم، لم أره وسط الوثنيين فى الغابات، ولا مع الجهل والعراة فى قرى الشرق أو الغرب، أو فى صحراء الشمال.. المدينة تضج بالعفن والكذب والخيانة.. لشد ما أكره المدينة.. لو خرجت أنت يا عثمان.. فستكون جنتى الموعودة.. ستكون البلسم الشافى لجراحى وآلامى، إنه حلم جميل أحلم به دائمًا.. أراك إلى جوارى عملاقًا قويًا، لا ترهب الخيانة، ولا تتراجع أمام جحافل التهديد والوعيد، وتهتف باسم الله كالبطل الأسطورى، وتمسح عن عينى الدموع، فأنت سلواى فى هذه الأيام المضطربة الهائجة..

ولا أريد أن أطوى هذه الصفحات قبل أن أبشرك بأن السيدة التى أعمل فى خدمتها، قد تقدمت بعرض وهو أن تدفع ثمن الأدوية والآلات المفقودة، وبهذا أفرج عنى، وعدت إلى قصرها الهادئ أنعم بالاستقرار والهدوء النسبى، ومع ذلك فإن الهواجس تنتابنى من آن لآخر.. كلما دق باب القصر خيل إلىّ أن عملاء الإرساليات قد أتوا مرة أخرى يسددون إلىّ اتهامات جديدة.. أو أن «نور» قد أتى ليثأر لحبه الضائع.. وإن كنت أعتقد أن إنسانًا هذا شأنه لا يعرف معنى الحب.. لأنه لا يفكر إلا فى نفسه،

وأحيانًا أخرى أفكر فيك، وأتوجس خيفة من أن تمتد إليك يد الطغيان بسوء.. وليس لى مفر من هذه الأفكار والبلبلة إلا أن ألجأ إلى الصلاة وأضرع إلى الله بدموع التوسل والرجاء، وأشعر بعدئذ أن قلبى قد امتلأ باليقين، وأن الآمال أقرب ما تكون إلى الازدهار والتحقق..».

●●●

وطويت الكتاب.. وظللت أعيد قراءته مرات.. لكل عبارة طعم ومذاق خاص.. إن «جاماكا» -أعنى- سعيدة، قد أترعت جانبًا من حياتى بمعانى جديدة لم آلفها قبل ذلك.. إنها تجربة أثرت وجدانى وروحى، وكان لابد أن تحدث، فهى ضرورة بالنسبة للاكتمال الذاتى أو الشخصى.. لكنى شعرت بعجز قاتل محير، تمنيت فى هذه الساعات أن أعثر على «نور» وأؤدبه. ألقنه درسًا لم يتعلمه طول حياته، وماذا كنت فاعلاً وراء هذه الأسوار والأسلاك الشائكة وعدت إلى شيخى عبد الله، والغضب يضطرم فى نفسى:

- «شيخى.. إن «نور» قد بلغ المدى فى الوقاحة.. ويسىء إلى المحصنات من النساء».

هز شيخى رأسه قائلاً:

- «اطمئن.. هى فى حصن حصين..».

- «وكيف تنجو من عالم كله ذئاب؟».

- «هناك الأتقياء الأخفياء.. وسعيدة إن هى اعتصمت بدينها كفاها شر الذئاب..».

ثم رفع رأسه إلى السماء وهتف بالآية القرآنية:

- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

تمتمت فى ارتياح:

- «صدق الله العظيم..».

وواتتنى فكرة فقلت لشيخى:

- «مولانا.. إننى أعرض عليك رأيًا».

- «قل، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم..».

- «ألا يمكن أن نخدع هؤلاء الحكام؟».

- «تخدعهم؟ كيف».

- «الحرب خدعة..».

- «أفصح يا عثمان..».

- «أعنى أن نظهر تأييدنا للحكومة . . ثم ننال العفو، ونخرج من هنا لنبدأ المعركة».

ضحك شيخى ضحكة حزينة، وقال:

- «العفو من الله يا عثمان».

- «نعم . . ».

- «ويوسف -قال إبان الأزمة- عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ثم عاد شيخى يرتل فى صوت يمازجه البكاء:

- ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

والتفت إلىّ قائلاً:

- «ألا تعرف طريق الحرية؟؟».

- «دائمًا أريد أن أعرف يا شيخى . . ».

- «التوحيد هو طريق الحرية . . الله وحده هو حاكم هذا الكون . . وهو المتصرف فيه . . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . . استغفر الله يا عثمان . . وقم وتوضأ فقد أذنت الشمس وتذكر ربك . . وسبح باسمه بكرة وعشيًا . . ».

وتطلعت إلى السماء توشحها السحب الذهبية، وبدا لى أن قطعة صغيرة من السحاب تضيء، ودققت البصر فيها، خيل إلىّ أننى أرى وجه سعيدة وهى تبتسم وسط ألسنة اللهب ابتسامة صامدة.. ذهبية الإشعاع.. تنبض بالروعة والحب والتأبى على الفناء..

وشعرت بيد تلمس كتفى، فأفقت من حلمى، ونظرت، كان عبد الرحيم يقف خلفى، ويقول:

- «يبدو أنك تترنم بالشعر..».



١٧

أدرك شيخى أننى كثيرًا ما أشعر بالملل، كان ذكيًا ذا فراسة، ينظر إلى وجهى، أو يلتقط كلمة من كلماتى العابرة، فيدرك ما يعتمل فى نفسى، وبدا لى كأنه محلل نفسانى من الطراز الأول، عن موهبة فطرية، وحسٍّ غريزى، والأيام تكاد تمضى متشابهة، ولم يعد هناك شىء جديد يشد انتباهنا، أو يصرفنا عن التفكير المحزن فى المستقبل الغامض، وهمس شيخى فى أذنى قائلاً:

- «الإنسان عجول، يتمنى أن يضع البذرة فى الأرض الخصبة، ثم يغمض عينيه فإذا بها شجرة كاملة تتوجها الثمار.. هل هذا ممكن يا عثمان؟».

أدركت ما يعنى فهززت رأسى وكأنى أعتذر، فاستطردت:

- «نحن نرى اليوم الواحد طويلاً جدًا..».

- «إن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون».

- «أجل . . ».

- «وكل شيء عنده بمقدار . . ».

ثم التفت نحوى وأمسك بيدى قائلاً :

- «ألا تعلم يا عثمان أن الله قال لمريم : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٥، ٢٦].

هل فى إمكان بشر أن يهز النخلة فيسقط الرطب؟ لكن الله ينفخ من روحه فى قدرة العبد الضعيف . . وبعض العبيد الأتقياء يتحولون بالطاعة إلى درجة من الصفاء رائعة فيقولون للشيء كن فيكون . . ».

كأنما شحننى شيخى بزاد روحى لا ينفد، فشعرت بأننى أستطيع أن أحقق المعجزات، وأفعل المستحيل، ونظرت إلى السجانين عن كثب، وإلى الأسوار العالية الضخمة، والأسلاك الشائكة، نظرت إلى ذلك كله فبدا لى تافهًا لا خوف منه، ولا قيمة له وتمتمت فى يقين :

- «إنه وحده القوى القاهر . . ».

ونظر شيخى باسمًا إلى بعيد، ثم أشار بيده قائلاً :

- «انظر . . ».

رفعت بصرى، فإذا بجمهرة من المساجين يحتشدون حول عدد قليل من العسكر، وعلى وجوه الجميع اهتمام، وساد لغط وجدل وصياع، وهرولت إلى هناك، وسمعت أنباء عجيبة من فم العسكر أنفسهم.

- «نعم بكل تأكيد سمعت ذلك بأذنى من الراديو.. لقد قبض الثوار على إيرونسى والمتمردين الخمسة المعروفين..

الدماء تسيل فى الشوارع.. قائد السجن شحب وجهه، وهرول إلى سيارته وانطلق لا ندرى إلى أين.. الرئاسة لا تستجيب لنداءاتنا..».

وتعالت الهتافات والتكبيرات، واختلطت الأنباء، وفى كل لحظة كان أحد العسكر يأتى إلينا بجديد، هذا يوم لا أستطيع أن أنساه مدى حياتى، إن الفرحة التى غمرت قلبى تكفينى طول العمر، أحسست أن الله قد عوضنى عن الأيام السوداء الطويلة، سأعود إليك يا «سعيدة» وسأعرف كيف أؤدب الخونة.. وتذكرت «نور».. أيها الأحمق الذى باع شرفه ودينه، وداس على قداسة الأخوة، وحبس نفسه فى إطار ضيق من الزمان والمكان والمطامع والأنانية.. سأتزوجك يا سعيدة.. وسنذهب إلى قبائل «الأيبو» ونزور أهلك، وندعو للإسلام من جديد، ونغنى الأغنية الجميلة التى كثيراً ما كان يترنم بها عبد الرحيم.. وسأقود قوافل الأغنام إلى

الجنوب . . نتاجر وندعو إلى الله ، ونعلم المؤمنين آيات من القرآن . . وتذكرت شيخى فعدت إليه مهرولاً . .

وجدته مغمض العينين ، والدموع تنسكب من بين أهدابه ، ويحرك رأسه يمنة ويسرة ، ويردد اسم «الله» ، وهتفت فى فرح :

- «مولاى . . » .

أشار بيده أن أجلس ، وأردد معه لفظ الجلالة ، فقلت :

- «سقط الظالمون» .

نظر إلىّ بعينين هانئتين ، وقال :

- ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤] .

- «صدق الله العظيم . . » .

- «قبضوا على إيرونسى . . » .

- «القصة قديمة . . » .

- «كيف؟» .

- ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٧] .

- «والعملاء من الأيبو واليوروبا والإنجليز والمنحرفين من

الشمال يفرون فى كل اتجاه . . وسنعود إلى الحياة من جديد يا مولانا . . » .

- «المؤمن لا يعرف شيئًا اسمه الموت . . والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . . الجسد يسكن لفترة ثم يذهب إلى الدار الثانية . . وهناك نعيم مقيم أو شقاء دائم ، أو عقوبات مؤقتة تطهر المذنبين ، وتردهم إلى الرحمة الإلهية نادمين تائبين معافين . . » .

كان اليوم مليئًا بالمفاجآت ، وكذلك الأيام التالية ، لم نكن نعرف فى هذه الفترة للنوم سبيلاً إلا فى أوقات قليلة ، وتحول مجرمو الأمس الذين سجنوا فى هذا الجب إلى أبطال وفدائيين ، وأقرباؤنا أخذوا يتدفقون على السجن من كل جانب ، لكن الأسوار كانت تحجبهم عنا غير أن بعضنا كان يصعد إلى أعلى ويلوح لهم سعيدًا ويؤكد قائلاً :

- «نحن بخير . . اطمئنوا . . » .

وطول هذه الفترة لم يكف شيخى عن التسبيح والحمد لله ، كان يقول من آن لآخر :

- «أصبحت المسؤولية أضخم . . كلما ازددتم قربًا إلى الله ، ازدادت ثقتكم بالنصر الأعظم . . » .

قيل له :

- «وما النصر الأعظم يا مولانا».

قال:

- «أن ترفرف راية الحق فى كل مكان، وأن تعلو كلمة الله.. فتحكم علاقات البشر أجمعين..».

وتساءل الجميع عن القائد الثائر، وعدت لشيخى أقول له:

- «هل تعرف يعقوب جوون؟؟».

- «أحد أبناء قبيلتنا.. إنه من الهوسا..».

- «لكنه نصرانى..».

- «لعل فى ذلك حكمة يعلمها الله.. إنه نصرانى آباؤه مسلمون.. تنصر فى ظروف تعسة.. أراد الله أن يذوق حلفاء الإرساليات التبشيرية والصهيونية العذاب والقصاص على يد رجال ليسوا مسلمين حتى لا يلصقوا بنا تهمة التعصب..

أى عثمان.. أى قائد كانت هويته ودينه لا يمكن أن ينتصر إلا إذا آزرته أمته.. الشمال مسلمون.. وقد وجدوا ولدًا من أولادهم يناجز الطغاة.. لن ينتصر يعقوب جوون إلا بمعاونة عمالقة الشمال المسلمين.. والقصة لم تنته بعد..».

وكان الانتقام أكبر فيما بعد فى مدينة «كانو» فى الشمال، إذ

سيق المتعصبون من الأيبو وعملاء الإرساليات التبشيرية والصهيونية إلى ساحة الموت، والرعب يكاد يقتلهم، وأريقت دماء كثيرة.. لكم يؤلمنى أن تسيل الدماء مرة أخرى، ويضيع دم الشهيد العظيم أحمدو بيللو هدرًا؟

أمن العدالة أن يترك القتلة الذين اختطفوا الضباط الأبرياء واغتالوهم غدرًا؟

أيصح أن يعفى عن الجلادين الذين قتلوا ومثلوا وسجنوا الشرفاء الأطهار من أبناء الأمة فى لحظة من لحظات العمالة والجهل.

●●●

وفتحت أبواب السجن الكبير..

وخرجنا إلى الحرية.. كان شيخنا عبد الله يمضى فى المقدمة.. وما أن خرج إلى الشارع، حتى سجد على الأرض لله شكرًا، ورأيت الحشد الكبير يتبعه فيما فعل.. واستقبلتنا عند خروجنا الأغر، الأغانى والأهازيج الشعبية، ووجدنا عددًا من رجال الطرق الصوفية بأعلامهم وشعاراتهم الجميلة تزحم الطريق وحمل شيخنا إلى جواد أبلج والطبول تدق من حوله.. الأجسام الفارعة السوداء ترقص فى سعادة، والتواشيح الدينية يتردد صداها فى

الآفاق . . لشد ما تغير وجه البلاد فى أيام معدودة ، ولاحظنا ونحن بعيدين عن السجن أن سيارات مقفلة- تسوق أعوان الظل إلى المكان نفسه الذى كنا فيه . . سبحانك يا ربى . . ونظر الناس إلى الحدث الكبير نظرة معينة ، فالحكام الطغاة الدمويون قد سقطوا . . وهذا شىء رائع ، والقيود قد فكت ، وانطلق رجال الدعوة الإسلامية يتكلمون فى حرية . . كان يعقوب جوون ابنًا بارًا للهوسا المسلمة ، على الرغم من أن الظروف قد جعلت منه معتنقًا للديانة المسيحية . . لقد كان ولاؤه لشعبه أكثر من ولائه لدينه . . وماذا يريد الدعاة المسلمون؟

إنهم يريدون جوًا من الحرية الحقة لكى يقولوا كلمتهم . . ولا يريدون حاكمًا يرغم الناس على اعتناق عقيدة ما بالإكراه . . ولقد بدا أن الحرية قد تحققت وهذا فى حد ذاته نصر كبير لرجال العقيدة المؤمنين .

وما أن استتبت الأمور حتى أتى القائد الجديد إلى بيت شيخنا ، كانت مفاجأة سارة للجميع . . انحنى أمام شيخنا فى أدب ، وقال :

- «جئت مهنئًا . . » .

- «أهلاً بك . . » .

وعاد القائد يقول :

- «أردت أن أقول إننى ما جئت إلا لجمع شمل نيجيريا كلها ولرد اعتبار «الهوسا» وتحريرها من القهر الظالم الواقع عليها . . أريد الحرية والوحدة والسعادة للجميع . . هذا هو دورى الذى أريد أن أؤديه حقيقة . . وعليكم أنتم أن تضيئوا الطريق . . كل حسب أسلوبه لتصل الأمة إلى آمالها المرتقبة . . » .

ولم يقل شيخى سوى كلمة واحدة جامعة :

- «كن مع الله يا يعقوب» .

ومشيت فى المدينة أنظر إلى بيوتها وحوانيتها ومساجدها وكنائسها ، وأتملى الناس فى الشوارع فى لهفة غريبة ، وكأنى مخلوق عائد من كوكب آخر ، لكل شىء مذاق حلو تستشعره روحى . . حتى الأغنام والجمال والجياد والحمير بدت لى مخلوقات لطيفة . روحى تحلق فى كل الأنحاء . . وتسمو إلى السحب ، وتتسلل داخل البيوت تعانق الشيوخ والأطفال . . وكل الكائنات . .

أية شفافية غريبة أهيم فى رحابها برغم العنف الذى يمارس شريعة القصاص . .

وقال عبد الرحيم :

- «ألا تعلم أنه فى المستشفى؟ لقد كادوا يقتلونه . . » .

- «مَنْ؟».

- «نور..».

- «لا تذكر اسمه أمامى..».

- «لقد اصطاده العامة فى الشارع.. كان يجرى هنا وهناك وهم يطادرونه.. إننى أتصوره بعوده الفارع ونظراته الزائغة.. والرعب يسيطر عليه.. مأساة مجسمة للإنسان الضائع.. ثم سقط إعياء بعد أن جرى طويلاً.. داسته الأقدام.. انهالت عليه الأحجار.. التقطته سيارة الشرطة وانتزعته من بين أيدى الناس..

وذهب.. إلى المستشفى وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة.. ولا أعلم مصيره حتى الآن».

فى ماضى الأيام أحببت «نور» كنت أعرف بعض نقائصه، وأدرك استهتاره، وكنت آمل أن تنصلح أحواله، وخاصة إذا ما وجد العمل الذى يسد حاجته، ظننت أنه باللين والعطف والمناقشة الهادئة أستطيع أن أسكب فى قلبه قطرات من الإيمان، فالمؤمن يحابه الحياة بصبر وإرادة وتوكل على الله. لكنه استعصى علىّ، من يصدق أن قبيلة من الأيبو تؤثر فيها كلماتى، وتتحول إلى دين الله، فى الوقت الذى استعصى على فيه أن أرد اليقين إلى قلب صديق مسلم؟

وقال عبد الرحيم:

- «إنه مسكين، لن يواسيه أحد».

- «هو الذى قطع كل رابطة له بالناس الشرفاء».

- «إنها سقطة..».

- «فليدفع ثمنها..».

- «أرى أن نعوده فى المستشفى يا عثمان..».

- «أجد صعوبة فى ذلك..».

- «لكنك رجل مؤمن، وتعرف صواب الصفح عن الخاطئين..».

ووجدتنى أتذكر أيامى الماضية معه، والعنت الذى لقيته سعيدة منه وسقوطه فى شرك الأعداء، واحتشدت كل هذه الذكريات فى رأسى فهتفت:

- «مستحيل..».

أمسك عبد الرحيم بيدى، وقال:

- «أنا أعرفك.. إن قلبك طيب.. هيا بنا..».

وسرت معه إلى إحدى المستشفيات التبشيرية، لشد ما أكره الذهاب إلى مثل هذه المستشفيات لما فيها من تعصب مقيت،

وإهمال للمسلمين، واستغلال بشع لحاجات المرضى، والمتألمين، وبلغنا المستشفى فأخبرنا الكاتب المختص بتسجيل المرضى أن حالة «نور» قد تحسنت، وأنه أخذ إلى مستشفى السجن ليكمل علاجه هناك، وقد سمع أنهم سوف يقدمونه للمحاكمة بعد شفائه.

قلت وأنا أعود إلى الشارع:

- «ترى هل سيجد من يدافع عنه؟».



١٨

وذهبت إلى «زاريا» بحثًا عن «سعيدة» كنت وحدى فى الطريق إليها، قلبى يشدنى إلى الأرض الطيبة التى تدب عليها، كلما مرت الأيام، بل الساعات، أحسست أننى أحبها أكثر فأكثر، وأخذ قلبى يرسم لها صورة بديعة مشرقة، إن ضغوط الآلام التى تعرضت لها، والعناء الذى قاست منه لا شك وشّح جمالها الفطرى، ووجهها الأسمر بمسحة خفيفة من الحزن المقدس، وعندما يضمنا اللقاء فى اللحظات الهانئة، فلسوف تمحى الآلام والأشجان، وعندئذ نستشعر مذاق السعادة مضاعفًا، أترى يستطيع قلبى أن يحتمل هذه السعادة كلها؟

وأنا مسافر جوال، أعرف البلاد، وكثيرًا من السكان، وأنا أدرى بمكامن الثروة، وأسواق التجارة، وأماكن اللهو، ودور العبادة، وطبائع القبائل، وضجيج السياسة، قلما أضل الطريق، أو أسقط بين براثن الحيرة، أشعر أن كل بقعة فى نيجيريا هى مسقط

رأسى، لا فـــرق عندى بين «زاريا» و«كـــانو» و«لاجـــوس» و«إينوغـو». . وقـصـدت لتـوى مـركـز «الشـرطة» كنت أبحث عن «سعيدة» أعنى «جاماكا». . عملاق من الشمال يبحث عن فتاة من الأيبو، لا شك أن الضابط قد ظن أننى سوف أشرب من دمها، لذا همس فى شك:

- «لماذا تريدها؟».

- «هى خطيبتى. . ».

ابتسم فى دهشة، وقال:

- «صدقنى. . أصبحت أشك فى كلام الناس، والدنيا لا تثبت على حال، إن العالم من حولك يموج بالأحداث. . ».

كنت قـد شـرحت له باختـصار كل مـا يتعلق بها، وأنها كانت متهمة فى قضية سرقة مزيفة، وأنها. وأنها. . وهز الضابط رأسه، وقال:

- «لقد سلمناها للأسرة التى كانت تقيم فى كنفها».

وأعطانى اسم الشـارع ورقم البـيت، وسـرت فى الطريق فى انتظار اللحظات الحلوة، وكلما اقتربت من البيت شعرت بما يشبه الدوار، تضاءلت شجاعتى، وتداخلت الصور القديمة والحديثة، وأصبحت لا أجد كلمة محددة مناسبة أستطيع أن أقولها لها. .

قال لى حارس القصر :

- «كانت فتاة طيبة ، على الرغم مما سببت لنا من مشاكل» .

- «ماذا تعنى؟» .

دق قلبى من الخوف ، لكننى سمعته يقول :

- «لقد رحلت!» .

- «متى؟» .

- «بالأمس» .

- «ألا تدرى إلى أين؟» .

- «يبدو أنها اتجهت إلى سوكوتا . . ومع ذلك فلسوف أتأكد من ذلك بنفسى . . إن سيدة القصر تعرف عنها كل شىء . . والحقيقة أنها بكت كثيراً عندما قررت «سعيدة» الرحيل . . » .

- «أرجو . . بسرعة . . » .

قال الحارس وهو يتجه صوب الداخل :

- «يجب أن تقلق عليها . . فالبلاد هائجة مائجة ، وسعيدة مسكينة تعرضت لآلام ومضايقات شتى» .

وجلست أنتظر أمام القصر تحت الأشجار الخضراء ، والطيور تبعث بأصوات متقطعة يائسة ، ورائحة الزهور ذات الأريج الحلو

تلامس أنفى بأنامل سحرية حلوة، وحان العصر، والسماء رائقة زرقاء تبعث على الأمل والصفاء.. والمواطنون من أبناء أمتى يمضون فى الطريق الواسع باسمين، والأطفال يجرون ويمرحون، سيل الحياة يتدفق دائمًا ودونما انقطاع، وشعرت بعاطفة قوية نحو الأطفال الذين يمرحون، لكم أحبهم..

- «نعم.. ذهبت إلى سوكوتا.. هذا ما أكدته سيدة القصر.. وهى ترحب بك لكى تستريح، وتتناول الطعام..».

هذا ما قاله الحارس، فصافحته شاكرًا، وانطلقت عائدًا من حيث أتيت، ترى أين ذهبت؟ بالطبع لن تعود إلى المستشفى التبشيرى الذى ظلمها وأساء إليها، الاحتمال الأكبر أن تكون قد قصدت بيت شيخى «عبد الله» أم تراها ذهبت إلى بيتى؟

ولم أصل إلى «سوكوتا» إلا فى وقت متأخر، عانيت الكثير من الإرهاق، ومع ذلك فقد كنت أصدق هواجسى فى احتمال لقائها بمنزلى، وأشعر بجسدى تنتابه قشعريرة غريبة.. لكن ليس لديها مفتاح.. أجل.. ومع ذلك ففى إمكانها أن تتسلق السور تمامًا كما كانت تتسلق الأشجار فى أحضان الغابات الكثيفة، فتحت الباب وأنا أتصنع السعال، سوف تشرق بوجهها الجميل فى ساحة البيت، لكننى أنظر فى كل اتجاه فلا أجد لها ريحًا، ضاع الحلم الجميل الذى ظل يداعب خيالى طوال الطريق، ومع ذلك فقد

كنت- حتى آخر لحظة- أتوقع أن تثب أمامى من مخبأ ما، وتفاجئنى آه.. البيت خاو لا حس فيه ولا نفس.. لشد ما أصبحت أشعر بملل قاتل فى هذا البيت الرحب الذى لا يكسنه إنسان غيرى!!.

كيف تحملت الحياة وحدى طوال هذه السنوات؟

ولم أستطع أن أقاوم النوم..

وتوجهت فى الصباح إلى بيت شيخى الذى كان يعج بالأتباع والأشياع، والأحاديث الجذابة حول شئون الدنيا والدين تسيطر على المجلس، واقتربت من شيخى هامسًا:

- «ألم تأت إليكم سعيدة؟».

ابتسم شيخى فى رضى، وقال:

- «الأفراح الحقة تعمر قلوب الأتقياء..».

- «أجل..».

- «وسعيدة لم تأت إلينا..».

دارت بى الأرض، هذا آخر ما كنت أتوقعه، أين ذهبت إذن؟ لا شك أنها تعرف ما يجرى فى البلاد من أحداث، وتستطيع أن تخمن أننى قد خرجت من السجن، وأننا قاب قوسين أو أدنى من السعادة التى نحلم بها.. يا إلهى!! أين أتجه..

- «شيخى . . إننى أشعر بقلق بالغ، فقد بحثت عنها فى زاريا . . وفى مقر الشرطة . . وفى البيت الذى كانت تخدم فيه . . ».

أغمض شيخى عينيه مفكراً، وقال:

- «عجيب هذا الأمر . . ».

- «أخاف أن تكون يد قد امتدت إليها بالانتقام فى هذه الأيام الرهيبة . . ».

- «أشك فى ذلك يا عثمان . . فالناس هنا يعرفون قصتها . . ».

- «ما الحل؟».

قال شيخى وهو يشير بإصبع الإبهام:

- «السر هناك».

- «أين؟».

- «فى المستشفى الذى كانت تعمل فيه . . ».

فى طريقى إلى المستشفى كنت أسأل من أعرف، سواء فى القسم القديم من المدينة أو القسم الجديد، وسألت الكثيرين من أصدقائى المنتمين للأيبو والذين يشغلون مناصب عدة، لكن لا أثر ولا خبر . .

وأخيرًا بلغت المستشفى . . الجميع يغلقون أفواههم عند سؤالى، لا شك أنهم يعرفون ولا يريدون أن يخبرونى عن شيء، ودخلت ثائرًا غرفة الطبيب «هانيمان».

- «أين «جاماكا»؟».

ابتسم فى برود، وقال:

- «لقد رحلت منذ فترة طويلة».

قلت وأنا أسدد إليه نظرات غاضبة لا ترحم:

- «أنت تعرف . .».

أشعل سيجار، وقال:

- «حسنًا لقد عاد الطائر إلى عشه . .».

وتبادر إلى ذهنى على الفور أنها ربما تكون قد عادت إلى دينها ومقر عملها، ولعلهم أخذوها إلى مستشفى آخر، ولم أكن أجد تفسيرًا لهذا إن صح أنه صحيح، واقتربت من الطبيب قائلاً فى لهجة حاسمة:

- «أين هى؟».

تنهد فى راحة، ونفث دخان سيجارته، وقال:

- «جاء أهلها واصطحبوها إلى الشرق . .».

صرخت فى جنون وأنا أمسك بيده فى جفوة :

- «أنت تعرف أنهم من المتنصرين . . وقد ساءهم ما حدث منها، وهذا شىء لا دخل لنا فيه».

- «لا بد أنهم اختطفوها . . » .

- «هذا شىء لا يخصنى . . » .

قلت والدموع تكاد تطفر من عينى :

- «لو كانت وراء السحب لطرت إليها . . » .

- «هذا شأنك يا عزيزى . . غير أنى أؤكد لك - كصديق - إن الطريق محفوف بالأهوال . . » .

•••

وعدت وحدى إلى الطريق، كل شىء ينبض بالحزن والأسى، القلق الحارق يعبث بروحى، ويفقدنى الرغبة فى أن أنام أو آكل أو أستقر فى مكان، أكاد أختنق من شدة الضيق، ولا أستطيع أن أصعد أنفاسى إلا بصعوبة بالغة، يا إلهى ماذا أفعل؟ .

قال شيخى وقد أخبرته بكل شىء :

- «لقد أراد الله يا عثمان أن تشد رحالك إلى أقاليم الأيبو مرة ثانية . . خذ أغنامك . .

واتجه صوب «لاجوس» . . ومنها اخترق الغابات صوب الشرق . . وهناك ستلتقى بإخوة أحباء . . وسوف يهتدى على يديك خلق كثير . . وستجدها هناك . . » .

قلت وأنا أرتجف :

- «كنت سأذهب ، لكن ألا تعتقد أن أهلها قد يفكرون فى قتلى؟» .

- «وقد تنجاب عن أعينهم غشاوة الجهل والكفر . . » .

- «أأذهب؟» .

- هذا نداء الله يا عثمان . . سوف يصحبك الله فى الحل والترحال . . وخذ معك عبد الرحيم . . وأعلم إن إخوة لك قد سبقوك إلى هناك منذ قلم الله أظافر إيرونسى والمتمردين . .

إخوانك يا عثمان الآن منتشرون فى الغابات . . وفى القرى وحقول النخيل . . وعلى مشارف المناجم . . حيث يسكن الأيبو فى الشرق ، واليوروبا فى الغرب . .

إن أيدى المؤمنين تدق أبواب البشر صباح مساء . . اذهب . . وتوكل على الله . . لعل فيما حدث خير كثير . .

إن هى إلا أيام قلائل وأشد الرحال، أنا أعرف الطريق جيدًا، لم أعد أحتمل البقاء فى سوكوتا، أنتقل فيها بين الأضرحة والمساجد ومجالس العلم والعبادة، أشعر دائمًا أن عبادتى لا تكمل إلا بالسير والحركة ودعوة الشاردين إلى الطريق الخالد.. وسأظل طوال الطريق أنتظر لقاءها.. فلقد أحببتها من كل قلبى...



١٩

الأرض كلها مزروعة بالفتن، ملغمة بالمؤامرات، أشعر بذلك وأنا أمضى فى رحلتى الطويلة من الشمال قاصداً لاجوس ومخترقًا الغابات فى الوسط والشرق، كنت صادقًا مع نفسى ومع رفيق السفر عبد الرحيم، أبديت له مخاوفى، إن سقوط إيرونسى والانتقام من بطانته، وأخذ الخائنين من الأيبو بالعقاب، كان مجالاً رحبًا للكنائس الاستعمارية والصهيونية، الذين كانوا يرقصون بالأمس فى شوارع لاجوس فرحًا باستشهاد أحمدو بيللو، وابتهاجًا بمصرع وكيله فى الحزب «أبو بكر تفاوة»- وقد كان رئيسًا لوزراء حكومة نيجيريا الاتحادية، هؤلاء الذين رقصوا بالأمس أراهم اليوم يكظمون غيظهم، ويجيلون نظراتهم الحاقدة فى كل اتجاه، وكأنهم يتنظرون ساعة معينة لينفثوا عن غيظهم وحقدهم، وعلمنا أن كثيرين من المسيحين أنفسهم قد قضى عليهم انتقامًا منهم بسبب تأييدهم القديم لأحمدو بيللو، لم يترك إيرونسى وعصابته

أحدًا دون عقاب سواء أكان مسلمًا أو مسيحيًا، ومن الهوسا أو الأيبو أو اليوروبا، كانوا- قبل أن ينقض عليهم يعقوب جوون- يخططون لفلسفة متعصبة عملية تحركها أيد خفية، لكن ذلك كله قد سقط بانتصار الثورة فى الشمال، وبرز الهوسا، وهم الأغلبية المسلمة الساحقة فى كل نيجيريا إلى حيز السلطة والتنفيذ . . وكان أمل الأعداء مركزًا على الحاكم العسكرى للإقليم الشرقى وهو الضابط «أوجوكو» الذى دأب فى الفترة الأخيرة على مهاجمة الشمال ويعقوب جوون فى خطبه، وكان يعقوب يحاول جاهدًا أن يوضح له الأمر، ويدعوه إلى الكف عن إثارة الحزازات والفتن، حفاظًا على وحدة كيان الدولة وإعطاء الحكومة الجديدة فرصة التنمية، والنهوض بالشعب اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا . .

وأخذنا- أنا وعبد الرحيم ومعنا خادم عجوز- نتنقل من مكان إلى مكان ندعو إلى الله، لم نكن أحيانًا نقيم شهرًا بين قبيلة من القبائل دون أن يهدى الله على أيدينا أحدًا، وأحيانًا أخرى كنا نلتقى ببضعة رجال فى الطريق، سرعان ما يعتنقون الإسلام، ويتركون وثنيتهم فى فرح واقتناع، وبعض رؤساء القرى كانوا يرفضون استقبالنا ويطلبون منا الرحيل فورًا، وفى كل مرة- سواء فى حالة النجاح أو الفشل- حرصنا أن تتسم تصرفاتنا بالنبل والصبر واللياقة، شأن الدعاة الواعين الفاهمين لكل ما يعترض الطريق من عقبات . .

وبعد شهرين ونصف على وجه التقريب استطعنا أن نبلغ المكان الذى تعيش فيه قبيلة «جاماكا» وكنت مدركًا تمامًا لدقة الموقف وحرجه، قال عبد الرحيم وهو يمسح المكان بنظراته الحادة :

- «هذه بقعة جميلة لا يأسف المرء أن يدفن فيها . . » .

وضحكنا، كان عبد الرحيم مقتنعًا أن مجيئنا هنا مغامرة غير مأمونة العواقب، وخاصة أن أهل «جاماكا» قد تنصروا منذ عدة أعوام، وهو يعتقد أن الذين تركوا الوثنية واعتنقوا دينًا جديدًا قد يكونون أشد عنفًا واستمساكًا بعقيدتهم الحديثة من الوثنيين أنفسهم، وقلت لعبد الرحيم :

- «أتخاف الموت؟»

- «على الأقل يجب ألا أسعى إليه» .

- «رسالتنا هى الحياة . . جئنا لنرسم صورة جديدة للحياة تليق بالإنسان . . » .

ضحك عبد الرحيم، وقال :

- «لو يعلم الناس ذلك منذ البداية لما تكبدنا المشاق . . » .

- «لا تخف . . » .

- «وكيف لا أخاف؟ أن يقتلونا هنا بطريقة مزعجة . . وقد يختطف الوثنيون لحومنا . . لا شك أن طعمك لذيذ . . » .

اقشعر بدنى، وتصورت الوليمة الوثنية الصاخبة والنار والدماء والأفواه الجائعة، والتراتيل الوحشية، والطبول المجنونة فاستبد بى ألم فظيع :

- «عبد الرحيم . . أرجوك . . لا تعد هذا على مسمعى مرة ثانية، إننى أشعر باشمئزاز بالغ» .

وسمعت خادمنا العجوز الذى وقف مشدوهًا مرتعدًا يقول :

- «ما كان يجب أن آتى معكم . . » .

قال عبد الرحيم له بطريقته المرحة وهو يربت على كتفه :

- «اطمئن . . فلن يكون لحمك طيب المذاق . . ولم يبق لك من العمر إلا أقله حسبما أعتقد، فلن تخسر كثيرًا . . » .

ومضى الليل إلا أقله ونحن نتدارس الأمر، ونعد العدة للغد، كان رأى عبد الرحيم ألا ندخل البلدة فى الغد، ففى التريث بركة، وكان من رأيه أيضًا ألا تظهر هويتنا الحقيقة فى البداية، حتى ينجلى الموقف، وتتضح الحقائق كاملة، واقترح عبد الرحيم أن نرسل الخادم كى يتقصى لنا الأمور، ويحاول جاهدًا الاتصال بـ«جاماكا»؟ لأنها لو علمت بوجودنا فقد تقدم لنا بعض التوجيهات الضرورية، واقتنعت على الفور بهذه الأفكار الواعية الحذرة، وتحدثت مع الخادم العجوز، الذى أبدى خوفًا شديدًا، وقال :

- «تريدون أن تجعلوا منى كبش الفداء؟».

- «كلا.. لكنك ستدخل البلدة فى زى متسول مريض..».

- «لن أفعل.. لقد جئت لخدمتكم بأجر محدد، وعملى هو الآخر محدد.. ولن أشارك فى العمل الآخر الذى جئتم من أجله..».

وبكى العجوز، وأخذ يقول بصوت متحشرجة:

- «ألا ترحمون شيخوختى.. أنا إنسان ضعيف مسكين..».

- «ولهذا اخترناك.. شيخوختك وضعفك سيحميانك..».

قال وهو يلوح بيده:

- «مستحيل.. مستحيل.. وسوف أرجع من حيث أتيت، ولست بحاجة إلى بقية أجرى، إننى أفضل الموت جوعًا، أو تنهشنى الضباع من أن يلتهم لحمى هؤلاء الوثنيون..».

وجلسنا حائرين يلفنا الصمت العميق المحير، «جاماكا» على بعد خطوات، وأنا أتلهف شوقًا لرأياها، والتمتع بحديثها، أريد أن أعرف ماذا جرى لها، وأريد أن نبدأ حياتنا معًا كزوجين سعيدين، ونعلن على الملأ قصة الإيمان العظيم الذى انبثق من الجزيرة العربية وانطلق نوره الفياض فى كل أنحاء الدنيا، ورسم أبهج صورة للدنيا

والآخرة، وعلاقات البشر قاطبة.. كنت غارقًا فى عديد من الأفكار، وإذ بى أرى عبد الرحيم يغيب لبضع دقائق ثم يعود بعد ذلك مرتديًا زيًا غريبًا بعض الشىء.

- «ما هذا؟ إنك تبدو كمواطنى تشاد».

- «بالضبط.. هذا ما قصدته.. ثم انتظر..».

ورأيته قد علق ساعده الأيسر فى رقبته، وأحكم رباطه بلفافات عديدة من الشاش، كان منظره يدعو إلى العجب.. وقال عبد الرحيم باسمًا:

- «أنا أكره الخداع.. لكنى أُعشق التمثيل.. وأظنه ليس حرامًا.. على أية حال فالحرب خدعة.. سأذهب إلى قبيلة «جاماكا» بنفسى.. سأقول لهم إنى متسول غريب قادم من تشاد.. وإننى على دراية كبيرة بالسحر.. وقراءة الغيب».

ضربت بكفى قائلاً:

- «من أتى عرافًا فقد كفر..».

- «هم كفرة بطبيعة الحال.. ومع ذلك فأنا لا أجد وسيلة أخرى، أخترق بها سياج العزلة هنا، وأتعرف على البيئة التى نتحرك فيها.. هيه.. ماذا قلت؟»

طأطأت رأسى، وهمست:

- «على بركة الله . . إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» .

●●●

لم يعد إلينا عبد الرحيم بعد أن رحل فى الفجر إلا بعد يومين ، تناوبتنى خلالهما الشكوك والهواجس ، وعرفت منه فيما بعد أنه دخل القرية بطريقة هادئة لا تلفت النظر ، ومضى فى طرقاتها ينادى بصوته الجهورى .

- «عابر سبيل . . يطلب الإحسان . .

تاجر صغير . . دهمنى اللصوص وأخذوا مالى وكسروا ذراعى . . الرحمة يا أهل الرحمة . . » .

واستطاع خلال نصف النهار الأول أن يتجول فى أنحاء البلدة ويعرف الكثير عنها ، وكم كانت دهشته عندما علم أن أهلها وأميرها مازالوا على ديانتهم الوثنية ، ، وأن فئة قليلة جدًا قد اعتنقت النصرانية ، ولهم معبد صغير يقع بجوار المستوصف المتواضع ، والغريب أنه وجد بضعة نفر مسلمين يؤدون الصلاة فى مصلى جانبى مهمل فى الجانب الآخر من القرية . .

وبعد الظهر توجه «عبد الرحيم» صوب المستوصف الصغير ، كان يبدو هادئًا لا أحد من المرضى أمامه ، وهو مكون من غرفتين

صغيرتين، وجدرانه مصبوغة بالجص الأبيض، يرفرف من فوقه علم نيجيريا وراية عليها صليب، وتمثال للعذراء مقام فى الساحة الأمامية، واقترب عبد الرحيم من باب المستوصف، فاستقبلته فتاة صغيرة ترتدى زى الممرضات المميز، وعلى صدرها تطريز لصليب واضح كبير. .

- «ما الذى أتى بك من تشاد؟».

- «قدرى. .».

واقتربت منه وأمسكت بذراعه قائلة:

- «هل كسرت عظامك؟».

صاح عبد الرحيم فى رعب:

- «بالله لا تلمسين. . الألم يكاد يقتلنى. .».

- «لا تخف سأعطيك دواءً مخدراً. .».

- «لا أريد. .».

- «لماذا أتيت إذاً. .».

- «لأستريح بعض الوقت. .».

وصاحت فتاة فى الداخل:

- «ماذا هناك؟ ما هذه الضجة. .».

وسمع عبد الرحيم الممرضة تردد قائلة :

- «مريض يرفض العلاج أيتها الأخت «جاماكا» . . »

وذهل عبد الرحيم عند سماعه اسمها ، وقف مسمراً فى مكانه ، فكر بسرعة ماذا يفعل؟

ورآها قادمة . . كانت تتفحصه بإمعان وابتسم عبد الرحيم لرؤياها . .

- «مَنْ أنت؟» .

- «جائع ظامئ . . » .

والتفتت «جاماكا» إلى زميلتها قائلة :

- «اذهبى وأحضرى له شطيرة وكوبًا من عصير الفواكه ، يبدو أن الجرح قد سبب له صدمة . . » .

وحينما انصرفت الممرضة ، أمسك عبد الرحيم بيدها وهو يتلفت يمنة ويسرة ، ويقول بصوت هامس :

- «سعيدة . . إنه هنا . . » .

قالت وقد بدت الدهشة على وجهها :

- «سعيدة؟ من أنت؟» .

- «عثمان أمينو . . هناك . . على حافة الغابة . . عند المنحدر الشمالى . . ينتظر على أحر من الجمر . . » .

قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع . .

- «هل جاء؟» .

- «نعم . . حفيت أقدامنا بحثًا عنك . . » .

كادت تسقط إعياء لكن عبد الرحيم عاجلها قائلاً :

- «يجب ألا يعلم أحد شيئًا . . تصرفى بطريقة عادية . . » .

سرعان ما تماسكت ، ثم قالت :

- «ستبقى هنا الليلة . . مفهوم . . سترحل زميلتى إلى بيتها . . ولن يكون معى سوى الحارس الذى يقف خارج المبنى . . سأدخلك كى تستريح وتضمد الجراح . . » .

وقال لى عبد الرحيم بعد ذلك :

- «وعلمت من «جاماكا» كل شىء بتفاصيله ، شرحت لى كيف أن الذين اختطفوها ليسوا أهلها ، وإنما عصابة كان يوجهها «هانيمان» لقد التقطوها من «زاريا» ، ثم حقنوها لعقار مخدر ووضعوها فى غرفة لإسعاف الجرحى ، ثم أتوا بها إلى هنا ، وسلموها إلى أهلها الذين كانوا فى غاية الغضب بسبب اعتناقها

الإسلام، وكم كانت دهشتى عندما علمت أنها ما زالت على إسلامها، وأنها تدعو إليه خفية بين بنات جنسها حتى إن فتيات كثيرات قد تبعنها سراً، وهى ترفض الذهاب إلى الكنيسة برغم تهديد أهلها وعنفهم معها، واتفقت معى على أنها سوف تأتى بنفسها لتوضيح كل شىء أمام عثمان. . أمامك أنت. . ».

●●●

ووقفت أنتظر اللحظات الموعودة التى طال ترقبى لها، إنها لحظات قصيرة، لكنها ضخمة ضخامة العمر بما يهدر فيه من انفعالات وأشواق عارمة. . الحب الحقيقى يهب الإنسان طاقة هائلة تسخر من الخوف، ولا تكترث للمخاطر. . وحينما رأيتها تقدم تحت ستار الليل، والقمر يسطع فى الأفق الصافى امتلأت بفيض من الأفراح لا يمكننى وصفه أو التعبير عنه. . تراءت النجوم. . وأشباح الأشجار. . والتلال. . وفروع الأنهار الصغيرة. . كأنها تغنى وسط سيمفونية. . لا مثيل لها، وخيل إلىّ أنى أسمع عبد الرحيم يترنم بأغنية الأيبو البارعة الفاتنة. . وكان الصمت أبلغ من كل كلام. .

ولم ندر أطال الوقت أم قصر، لكن «جاماكا» أعنى سعيدة انتفضت واقفة فجأة، فقلت:

- «ماذا جرى؟».

قالت :

- «ألا تسمع دقات الطبل؟» .

- «لا أفهم . . » .

- «هذه الدقات معناها الاستغاثة أو النجدة . . » .

- «لماذا؟» .

وبقيت «جاماكا» صامتة ترتعد . .

- «بدا لى أننى رأيت أحدًا يتتبعنى» .

- «لعله الوهم والخوف . . » .

ولم تكن تعلم أن الحارس قد تتبعها فعلاً ، ثم عاد إلى القرية يصيح ويقول :

- « . . جاماكا» سرقها الغرباء . . » .

لم تعرف ذلك على التو ، وقد أتضح كل شىء عندما رأينا عددًا كبيرًا من حملة الرماح يدهمون المكان ، ويحيطون بنا من كل جانب ، ووجدت «جاماكا» تخرج إليهم فى شجاعة لا نظير لها ، وتصيح بأعلى صوتها :

- «ما هذا الذى تفعلون؟ لقد أتيت لمعالجة مريض لم يستطع

الوصول إلى المستوصف . . أنزلوا رماحكم وعودوا من حيث أتيتم . . » .

كان الخادم العجوز يرتجف من الانفعال ، وجسده كله ينتفض ، وقدم بعض رجال الأيبو ومعهم مصباح صغير ، واقتربوا منا ، واتجهت أبصارهم صوب العجوز الملقى على الأرض ينتحب ويبكى ويرتجف ، وما أن رأوه على هذه الحال حتى انصرفوا فى هدوء ، وقال أحدهم وهو يهبط المنحدر :

- « . . جاماكا » . . نحن فى انتظارك حتى تنتهى من مداواته . . » .

وحذرتنى « جاماكا » وهى تزمع العودة قائلة :

- « ادخلوا البلدة ولا تخافوا . . ادخلوا كتجار . . وحذار أن يعلم أحد هويتكم فى البداية . . وسيبقى العجوز فى المستوصف للعلاج . . وبهذا ألتقى بكم دائمًا مع كل خطوة من خطواتها . . وحمل اثنان من رجال الأيبو الرجل العجوز ، ووضعوه على محفة من أفرع الأشجار ، وكان المسكين يصيح ويتململ ويرفض الذهاب ، لكنى زجرته وطمأنته . .

فاستسلم لمصيره . .

●●●

٢٠

لم تكن رحلتنا خالية من المنغصات، وهكذا الدنيا فى يوم تبتسم لك وفى يوم آخر تكشر لك عن أنيابها، والمؤمن مطالب ألا يفرح بما أتاه، ولا ييأس على ما فاته، وأن يهيئ نفسه للنجاح والفشل، والرضا والسخط، والشقاء والنعيم، ولم تفلح رقصات «عبد الرحيم» ولا أغنياته عن الأيبو أن تزيل جو الشكوك المحيط بنا تمامًا، وأخذنا نجتهد فى التجارة إخفاء لنوايانا الطيبة، فكنا نخرج فى رحلات قصيرة إلى القرية القريبة، ونعود ببعض الأغراض إلى قرية «جاماكا» التى اتخذنا منها مقرًا لنا، وكان يشرف على المستوصف قسيس غير متفرغ، بمعنى أنه يبقى فى القرية يومين من كل أسبوع أحدهما يوم الأحد كى يؤدى المواعظ، ويقوم بالصلاة للفئة القليلة المتنصرة من أسرة «جاماكا».

ويبدو أن «مارى» زميلة «جاماكا» فى العمل لم تكن ترتاح لوجودنا، إذ كنت ألحظ الامتعاض على وجهها كلما رأتنا، وكان

خادمنا العجوز تزداد حالته الصحية سوءاً أليس هذا عجيبًا، لقد كان يمثل المرض، وإذ به يتحول إلى مريض فعلاً، لعل القدر أراد أن يمد فى بقائنا أطول فترة ممكنة لشيء يعلمه الله، ومع ذلك فقد استطعنا أن ننجز بعض النجاح فى القرى، إذ أسلم على أيدينا أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة، وكنت أتسلل إلى قراهم من وقت لآخر وأشرح لهم قواعد الدين الإسلامى، وتأدية الشعائر بالطريقة السليمة، كما طلبت منهم أن يتكتموا أمرنا حتى نرحل، إذ إن العداء بين «أوجوكو» حاكم الإقليم الشرقى، ويعقوب جوون قد استحكم فى الأيام الأخيرة، وكرر «أوجوكو» نداءاته للأيبو كى يعودوا من الإقليم الشرقى، وحدد موعداً نهائيًا لعودتهم، وأشيع أنه يفكر فى الاستقلال بالإقليم الشرقى ويجعل منه جمهورية مستقلة، والتقينا سراً أنا وعبد الرحيم، و«جاماكا» لنتدارس الوضع الذى نعانى منه، وقلت:

- «ها نحن نعيش كالسجناء..».

قال عبد الرحيم:

- «ولن نستطيع أن نبقى هكذا»

وقالت «جاماكا» وعيناها تبرقان فى ثقة:

- «قولوا للناس كلمتكم علانية».

- «والنتيجة يا سعيدة؟».

- «مَنْ شاء آمن ومَنْ شاء كفر..».

- «وأنت؟».

- «سأتدبر الأمر وأرحل معكم خفية.. ما عدت أطيق البقاء هنا أكثر من ذلك..».

وعلى رغم الشكوك التى كانت تحوم حولنا، فقد أنس الكثيرون من أهل القرية إلى سلوكنا الطيب، وتعاملنا النظيف، وأخذت عبد الرحيم ومضيت إلى أمير البلدة استقبالاً طيبًا كعادته، لم يكن معه سوى رجلين من عيون القرية، وكان الجو إذن ينبئ عن الهدوء.

قلت له بعد أن جلسنا بضع دقائق:

- «يا أمير.. الصدق أمانة، والكذب خيانة..».

- «هو ذاك..».

- «وقد جئنا نحمل إليك أعظم ما فى الوجود..».

ابتسم الأمير، وأضاءت الابتسامة وجهه الأسود، وقال:

- «هذا شيء عظيم..».

- «كل شيء فناء أيها الأمير..».

- «أعلم..».

- «إلا ما يطهر الروح، ويقربها من الله . . ».

- «نحن نعبد الله من قديم . . ».

- «هديتنا إليك . . كتاب الله . . هدية السماء للأرض . . ».

وأخرجت مصحفًا جميلاً، مكتوبًا بالعربية، ومع علمى بأنه لا يستطيع قراءته إلا أنى قدمته إليه . .

- «ماذا فيه؟».

- «سعادة الدنيا والآخرة».

- «ثم ماذا؟».

- «وفيه . . الله واحد للبيض والسود والفقراء والأغنياء، وفيه أن الإيمان واجب بجميع الرسالات الإلهية والرسل والأنبياء، لا نفرق بين أحد من رسله . . ».

هز رأسه، ونظر إلينا فى رمعان، وقال :

- «وما هو حقه علينا؟

- «حقه أن تؤمنوا به . . وأن تحاربوا الفساد والظلم والخطيئة . . ».

غمغم قائلاً :

- «وماذا تعنى الخطيئة؟».

- «لقد وضع الله نظامًا للحياة، ووضع علاقات البشر، وحقوقهم وواجباتهم. . بأسلوب عادل لا مثيل له، فمن خرج عليها فهو خاطئ. . إن حدود الخطأ والصواب قد وضعها الله، ولم تترك لأهواء البشر. . البشر قد يجانبهم الصواب، لكن الله جل وعلا لا يخطئ، ولا يحيد عن الحق. . لأن اسمه الحق. . ».

ابتسم الأمير، وعلق:

- «كلماتك جميلة. . وما أكثر ما سمعت من كلمات جميلة. . أيها أصدق؟».

وثبت وجلست أمامه بين يديه، وقلت:

- «صدّق عقلك وقلبك. . صدّق التجربة الحية. . ».

- «يا إلهى. . تعددت صور الحق كثيراً. . جاءنى أحد القساوسة منذ سنوات وكلمنى كثيراً عن ذلك. . لكنى أعرف هؤلاء الأجانب. . ».

أسرعت قائلاً:

- «لم نأت مستعمرين ولا طامعين، ولم نحمل إليك مالاً، وما وعدناك بتثبيت دعائم حكمك. . نحن لا نحمل إلا دعوة الحق. . وهذا كل ما معنا. . ».

ووضع يده على كتفى، وقال:

- «من أنتم؟».

- «مسلمون . . إخوة لكم قدمنا من الشمال . . ».

وبدا شيء من الامتعاض على وجهه، وقال :

- «لكنكم قتلتم الأيبو فى الشمال . . ».

- «لقد سبقوا بارتكاب القتل . . فوقع عليهم القصاص . . ومع ذلك، فإن الأمر ليس قبليًا . . دعوة الله للجميع . . قد يكون الأيبو المسلم أحب وأقرب إلى الله من رجال الهوسا المسلمين . . والدين ينفر من العصبية . . الكل إخوة تحت لواء دعوة الله . . ».

فكر الزعيم قليلاً ثم قال :

- «كلامك جميل . . وحينما أنظر إلى عينيك أقرأ فيهما الصدق والأمانة . . اتركا هذا الأمر فسأفكر فيه بإمعان . . ».

ثم قال بعد فترة صمت :

- «إن كانت لكما حاجة قضيتها . . ».

وثب عبد الرحيم فى خفة، وقال :

- «الأمان . . ».

- «هذا لكما . . ».

- «وأن تفتح أمامنا الطريق لنقول للناس الحق، ولن نكره أحداً عليها . .».

- «قولا ما شئتما . .».

وخرجنا إلى الأسواق وأماكن التجمعات ندعو ونعلن، وفوجئت القرية بصورتنا الجديدة، ولجأ إلينا الإخوة المسلمون القدماء فى فرح غامر، وأخذوا ينقلون عنا كل شيء وخرجت النسوة المسلمات اللاتى أسلمن على يد «سعيدة» يغنين ويظهرن ابتهاجهن، ولم يمر الحدث بسهولة، فقد هاجت القرية وماجت، وعلا فيها الجدل والصياح، وأمسك والد «جاماكا» بابنته وحبسها فى مكان بعيد عن الأنظار حتى لا تتصل بنا أو بالناس، وأوجسنا خيفة من هذه التطورات الجديدة، بينما نحن نفكر فى الأمر إذا بزعيم القرية يدعونا بصفة عاجلة وعندما التقينا بالأمير استقبلنا واقفًا، والاهتمام بادٍ على وجهه، وقال :

- «يجب أن ترحلوا بسرعة . .».

قلت بنبرات متعلثمة :

- «لماذا؟»

تلفت حواليه ففهم من حوله أنه يريد الإنفراد بنا فانصرفوا، وما أن أصبحنا وحدنا حتى قال :

- «لكى تنجو بحياتكم يجب أن ترحلوا على الفور . . » .

- «لماذا؟» .

- «الأمر لا يتعلق بكم خاصة . . » .

- «ما معنى ذلك؟» .

صرخ بأعلى صوته قائلاً :

- «أما سمعتم عن مذبحة «أونيشا» . . إن شوارع البلدة منذ أمس قد امتلأت بجثث أبناء الهوسا المسلمين والقتل لا يكف ليل نهار . . لقد اشتعلت الفتنة . . وأوجوكو أعلن الاستقلال . . وغداً تقوم الحرب . . فروا بجلودكم . . إنهم يبحثون عن الهوسا فى كل مكان . . أتفهمون؟ المفروض أن أقتلكم الآن . . » .

وأخذ يدق الحائط بيديه ، ويقول :

- «لا أستطيع . . لا أستطيع . . إننى لم أنس كلماتك الطيبة بعد . . مثلكم لا يصح أن يقتلوا . . » .

وعندما هممنا بالانصراف أشار قائلاً :

- «لا ترحلوا إلا فى الليل . . واذهبوا مباشرة إلى قبائل «الكالابار» فى الشرق . . الكالابار سوف يحمونكم . . لقد رفضوا المذابح . . الكالابار عندهم المكان الآمن لكم . . » .

ثم أخذ يشرح لنا الطريق الآمن إلى قبائل الكالابار، وأخيراً همس:

- «حذار أن يعلم أحد بما حدثتكم عنه».

وتوقفت لحظة، ثم قلت:

- «أليس في الإمكان أن أصحب «جاماكا» معي؟ لقد اتفقنا على الزواج..».

ابتسم الزعيم في مرارة، وقال:

- «لا تفكر في شيء آخر غير النجاة.. عندما تتوفر لك الحياة الآمنة ففي الإمكان تصحيح كل خطأ.. الموت لا يعطي فرصة لأي لون من ألوان التصحيح.. انصرفوا بهدوء.. وقد ألتقي بكم في يوم من الأيام.. من يدري؟ إن صدى كلماتكم الحلوة لم يزل يرن في قلبي ويخالط فكري.. أنتم أناس طيبون..».

●●●

وبلغنا موطن «الكالابار» بعد جهاد مرير، ومحن قاسية، وتنفسنا الصعداء ونحن نلتقي بإخواننا اللاجئين من الهوسا إلى حمى «الكالابار» كانت الحرب قد استعرت بين الشرق بزعامة أوجوكو والحكومة الاتحادية ويمثلها يعقوب جوون، وسمعنا مئات القصص الرهيبة عن الذين ذبحوا غدرًا في مناطق الأيبو بالشرق،

وكان واضحًا أن إسرائيل والهيئات الاستعمارية والتبشسرية تؤجج النار، وتبعث بالأسلحة والمساعدات لأجوكو، وتساعد إعلاميًا فى الصحافة العالمية والإذاعات الكبرى، وتروج لجمهورية جديدة.. جمهورية «بيافرا» وهكذا أغرقت بلادنا فى الحرب الأهلية الدامية.. الحرب التى خطط لها الاستعماريون والاحتكاريون والحاقديون على الإسلام والمسلمين، وروج لها الذين رقصوا بالأمس لمصرع أحمدو بيللو ونائبه أبو بكر تفاوة..

وتدفق عمالقة الشمال النيجرى صوب غابات الأيبو، وأوكار العمالة والخيالة، ليعيدوا للبلاد وحدتها وهدوءها، وليحفظوا للأمة خيراتها وحريتها..

ورجعنا إلى «سوكوتا» أنا وعبد الرحيم والخادم العجوز.. ولم يكن هناك مفر من أن ألتحق بالقوات المحاربة إيمانًا بوحدة الأمة وحريتها وتخليصها من براثن المتآمرين والمتعصبين والاحتماريين.. وانضم أيضًا عبد الرحيم..

●●●

٢١

الطريق من «كانو» و«سوكوتا» إلى مدينة «إينوغو» عاصمة «بيافرا» الانفصالية طريق وعر طويل شاق، على جانبيه أريقت دماء كثيرة، وسقط عدد من الشهداء وأصبحت الغابات مسرحًا للانفجارات العنيفة، وطلقات الرصاص المستمرة، وكانت الطائرات تحلق فى الأجواء حاملة الموت والدمار والدماء، وتنفث الدخان الأسود، وصمتت الأغنيات الشعبية الجميلة، أغنيات الحب والنماء والأمل والزهور والحصاد، ودقت فى الأنحاء المارشات العسكرية المخيفة، وطبول الحرب يعلو عويلها المتحشرج المزعج، وعمالقة الشمال يتدفقون صوب الهدف . .

كنت قلقًا طوال المعارك الدامية، والحرب يا أصدقائى كالعمياء البكماء، لا تميز بين صالح وطالح، ومجرم وبرىء، ووثنى ومؤمن كلهم بشر يتألمون ويخافون، ويحزنون ويتشاءمون، وعزائى الوحيد أن كل شىء بقضاء وقدر، وأنه لابد من بعض الألم كى

نتعم بالراحة، والشقاء قد امتزج بالنعيم فى دنيانا الفانية، ولا حيلة فى الأمر مادام هناك أناس يطمعون، ويستسلمون للإثم والجشع، وأناس يهمهم أن يسود الحب، ويرتبط الإخوة فى الوطن بكيان واحد، يحفظهم من الشرود.. ويحميهم من العدو، ويمكن لهم من ثرواتهم وحريتهم.. ذلك قضاء الله ولا راد لقضائه.

وهناك قرية على تبة عالية، كان لرجال «أوجوكو» موقع حصين عليها، ولا يمكن أن أنسى الأيام المريرة التى عانينا فيها ونحن نحاول احتلال هذا الموقع؛ لأن مدافعهم كانت تتحكم فى تحركاتنا، وكلما قمنا بهجوم، انهالت علينا نيرانهم القوية فخسرنا عددًا كبيرًا من الشهداء، وكانت لدى الجيش عندنا بعض الطائرات التى قرر قائد الكتيبة الاستعانة بها لذلك الموقع، والمشكلة العويصة أن المدافع المضادة للطائرات كانت تشكل خطرًا آخر، وعلمنا بطرقنا الخاصة أن بعض الخبراء الإسرائيليين، والذين كانوا قبل ذلك ضباطًا فى الجيش الأمريكى، يوجهون العدو، ويمدونه بالمشورة ويساعدونه فى التخطيط والرمى، كان لابد أن نحتل هذا الموقع الذى يتحكم فى عدة طرق، حتى لا يتعطل الزحف، والحقيقة أن رجالنا كانوا يتقدمون دون خوف، لكن العدو يدافع فى استماتة بالغة، وكنت أضرع إلى الله فى صلواتى ودعواتى أن يجعل لنا السيطرة على هذا الموقع حتى لا نفقد مزيدًا من الضحايا،

إننى أتألم من فقدان أى إنسان فى هذه الحرب الأهلية التى اندلعت بين الأخ وأخيه، ولذا تمنيت من صميم قلبى أن يضع الله لهذه الحرب النهاية العادلة فى أقرب وقت، يا إلهى . . إن المزروعات قد تلفت تمامًا، والحيوانات هى الأخرى قد أصيبت بالفزع، اضطرب الأمن وشقت الحياة على كل الكائنات . . . واستطعنا بالحصار الشديد، والضرب المستمر أن نعزل المنطقة ولا نسمح لأية نجدات بأن تنفذ إليها من أية ثغرة، وأخيرًا بعد عناء طويل استطعنا أن نستولى على الموقع، كنا نتقدم، ولا نقف أو نتراجع برغم كثرة الذين يسقطون وعندما تم لنا النصر ، وقف قائدنا وقال وعيناه تبرقان فى تشف :

- «سوف أجعل من هؤلاء الخونة عبرة . . سأقيم مذبحة أكبر من مذبحة «أونيتشا» التى أقاموها لإخواننا من «الهوسا» . .

وجريت صوب القائد، وهتفت :

- «أيها الأخ الأكبر . . أنهم أسرى» .

- «هم عصابة مجرمين . . » .

قلت وعيناى مخضلتان بالدموع :

- «القتل لا يصلح شيئًا، ودماء الحقد صعب أن تجف . . » .

نظر إلىّ فى غيظ وسخرية، وقال :

- «أنت لا تعرف الحرب . . لو لقناهم درسًا فسوف تستلم كل المواقع التالية دون مقاومة . . الرعب يفتح الطريق أمامنا . . » .

صرخت فى حدة :

- «بل الحب والصفح هما اللذان يفتحان الطريق» .

صاح القائد :

- «خذوه بعيدًا . . » .

وأمسك بى عدد من الجنود من الإخوة ، وسحبونى إلى مكان آخر كنت أصيح وأتوسل إليه ألا يريق دماء ، أو يقتل أسيرًا ، نحن نريدهم أحياء ، لنصنع من حقدهم صورة جديدة للتفاهم والإخاء ، نريد أن نسمعهم كلمات الله لعلهم يؤمنون ، وعندما يستقر الإيمان فى قلب مجموعة من البشر ، فيستحولون إلى إخوة حقيقيين لنا ، وعندما أطبقنا عليهم ، كان المحاربون يرفعون أيديهم فى استسلام تام ، عيونهم تعبر عن التعاسة ، وأجسادهم النحيلة يرتسم عليها الشقاء والجوع والسهر المضنى وأمسك قائدنا بمدفعه وصاح :

- «أيها الحمقى . . أين قادتكم . . » .

وجاءنا صوت رجل جريح :

- «لقد هربوا يا سيدى . . » .

كز على أسنانه غضبًا، ووقف صامتًا لحظات، فتقدمت إليه وأمسكت بيده فى هدوء، وقلت:

- «دعنا نجرب.. هؤلاء الرجال لو صفحنا عنهم، فيسكونون عونًا لنا لا علينا.. تذكر إنهم إخوة.. وأننا نسير فى ضوء شريعة الله..».

تفصد جبينه عرقًا، ونظر إلىّ طويلاً، ثم مضى إلى سيارته..

الحمد لله.. جلست وسط الجنود المتهزمين يومين أشرح لهم القضية، وأوضح لهم الأمر، وأفسر لهم معنى الإيمان، وصاح أحدهم:

- «لقد خدعونا..».

الحقيقة أن الصفح عنهم بعد هذا الصراع الدامى كان أفعل من أى وعظ، وأبلغ من أى كلام، وفى يومين كانوا قد استجابوا لكلماتى وآمن عدد غير قليل منهم، وأجمعوا أمرهم على أن ينضموا إلى صفوفنا من أجل وحدة نيجيريا الأم، و كان قائدنا سعيدًا جدًا لهذا التوفيق العظيم؟ لأنهم سهلوا لنا كثيرًا من الأمور العسكرية أثناء زحفنا، وكان لتوجيهاتهم وصراحتهم أثر كبير فى انتصاراتنا فيما بعد، بل إن القائد أنعم على بنيشان وترقية عسكرية تقديرًا لما أسديته لقواتنا المحاربة من خدمات جليلة كما جاء فى كلمته -أثناء الاحتفال الصغير المتواضع الذى أقامه من أجل

شخصى الضعيف . . أما سكان القرية المجاورة للموقع فقد ظلوا قابعين فى أكواخهم وبيوتهم لا يغادرونها ، وعلمنا أنهم لم يكونوا يقدمون للمحاربين ما يحتاجون إليه من طعام وشراب إلا عنوة ، بل إن الأعداء قتلوا عددًا من أهل القرية ، وخاصة المسلمين منهم الذين رفضوا التعاون معهم ، ولم يكن ذنب المحاربين بل ذنب قادتهم الذين يتلقون توجيهًا من الخبراء اليهود والضباط التبشيرين وعملاء الاستعمار . .

ودخلنا القرية وأمامنا مكبرات الصوت تعلن لهم العفو ، وتعدهم بحسن المعاملة ، وتدعوهم للخروج إلى العمل ، ومزاولة حياتهم دون خوف ، وخرجت القرية عن بكرة أبيها ترحب بنا ، وانعقدت حلقات الرقص الوطنى ، واختلطت الأغنيات الشعبية ، وأخذ عدد كبير من الشباب يهتف بسقوط «أوجوكو» والخونة ، ولقد حاول بعض الجهلة من جنودنا أن يمازحوا الشابات ، فجن جنونى ، وأسرعت بإخبار القائد ، الذى أصدر أوامره بالكف عن هذا العبث ، وقلت فيما قلت لقائدنا :

- «سيدى القائد ، إننا ننتصر عليهم بطاعتنا لله ، ومعصيتهم له . . فلو تساوينا فى المعصية معهم لا نتصروا علينا . . » .

فابتسم القائد ، ثم ضحك ، وأخذ جسده يترنح من شدة الضحك ، وأخذ يقول :

- «الحرب تسقط بعض القيم يا عثمان . . » .

- «لكن المسلم أيها الأخ الأكبر لا يفارق قيمه سواء فى السلم أو الحرب . . » .

- «صدقت . . أنت رجل صالح . . » .

وصمت برهة ثم قال :

- «أعرف أن الحرب قد تغير كثيرًا من ظروف الفرد وسلوكه وبعض الجنود قد يصابون بالجنون . . ليس سهلاً أن يسقط القتلى ، وتسيل الدماء ، وتنطفىء شمعة الحياة . . ومع ذلك فقد أصدرت أوامرى . . » .

وأبديت له تقديرى وشكرى ، وقلت وأنا أتطلع إلى الشمس الحارقة التى تسكب النور الساخن على الفحم والغابات :

- «ما جئنا لنكسب معركة حربية ، بل لندعم أواصر الحب ، ونجمع الأخوة فى الشرق على قلب رجل واحد . . جئنا لنكسب قلب الإنسان ، قبل أن نكسب الأرض والمواقع . . » .

ومضينا فى طريق المعارك المضنية العنيفة ، كانت الحرب هى جل حياتنا ، نمسى ونصبح ، ونحن نعد لمعركة ، أو نمشط منطقة من جيوب المقاومة ، أو ندفن موتى ، أو نضمد جرحى ، وكنت أتألم ، إن الإنسان الذى يموت يجب أن تهتز له قلوبنا ، موت إنسان شىء

كبير للغاية، فبموته تموت أمنياته، وأحلامه وغده، ولا يعود مرة ثانية إلى أهله ومحبيه، أله أبناء ينتظرون؟ أله أم وأب يقفون كل صباح وكل لحظة غروب ينظرون إلى الأفق البعيد لعله يأتي إليهم؟ لكن لا مفر من الموت، والحرب فرض، وليس أمامنا إلا الدفاع عن أنفسنا ووحدتنا وأمن شعبنا.

وأنا أكره الكذب أشد الكره، كثيراً ما كنت أفكر في «جاماكا» أعني «سعيدة» كنت أخاف أن تصيبها رصاصة طائشة، وما أكثر الرصاصات الطائشة في الحروب.. كان لها في قلبي منزلة خاصة، وكانت بريئة مضطهدة، ولذا تمنيت أن تعيش وأن تنعم بباقي حياتها.. إنها بالنسبة لي تعني الأمل في المستقبل الطيب، تعني إمكانية التقاء بين الهوسا والأيبو واليوروبا وغيرهم من أبناء نيجيريا الأم.. كانت رمزاً حيًا نابضًا ولم تكن مجرد حبيبة.. ويوم أن وقفنا على مشارف المنطقة التي تعيش فيها، كان قلبي يدق.. متى تبدأ المعركة؟ وأين سنصب نيراننا، وذهبت إلى القائد وقلت:

- «لا يصح أن نطلق رصاصة واحدة قبل أن نتأكد من أن العدو هنا سيقاوم..».

وابتسم القائد في هدوء، وقال:

- «أخبرني عبد الرحيم عن كل شيء..».

وأخذ يقهقه ثم استطرد:

- «لن ندع هذه الأمور الشخصية تتحكم فى مصير المعركة.. وفى مصير الرجال الذين يسيرون معنا فى حقول الموت.. هل فهمت؟».

قلت وأنا أخفض رأسى خجلاً:

- «هؤلاء الناس أنقذوا حياتنا.. وفيهم من يحبنا ويؤمن بالله..».

رد فى جفاف:

- «سنرى..».

- «إذن فلتتركنى أذهب لمفاوضتهم..».

- «فليأتوا هم..».

- «لسنا يا سيدى القائد فى مجال الكبرياء..».

- «ليست كبرياء، ولكنها الأصول العسكرية.. لو كانت زوجتى وأولادى يعيشون فى هذه القرية، ورأيت من المصلحة أن أدمر القرية، لدمرتها فى الحال..».

اقشعر بدنى، تصورت البيوت المهدمة والصراخ والبكاء والآدميين الذين يستحقون تحت الأنقاض، وقلت فى نبرات واهنة:

- «ديننا يوصينا بالرحمة».

- «لا نخلط بين الرحمة والتخاذل . . ».

ونظر القائد إلى بعيد وأنا أفكر فى هذا الموقف الصعب، وأفقت من شرودى على صوت قائدنا يقول:

- «ها قد أتوا . . »،

يا ألهى ماذا ترى؟ مجموعة من سكان القرية، وعلى رأسهم زعيمها وإلى جواره «جاماكا» يحملون الرايات البيضاء، وباقات الزهور، وأعطيت التعليمات للجنود بالاستعداد الكامل، وإعداد العدة لأى طارئ، ودخل الزعيم ومن معه بين صفين من الجنود، وما أن رأتنى «جاماكا» حتى اتسعت حدقتاها دهشة، وامتلأت عيناها بالدموع، ثم ألقت بنفسها فجأة بين ذراعى . . ولم أكن أدرى ماذا أفعل . .

قال زعيم البلدة:

- «جئنا نرحب بمقدم الأشقاء القادمين من الشمال . . ونحن أصدقاء من قديم و«عثمان أمينو» . . يعرفنا جيدًا . . ».

سامحنى الله، فقد كنت أشعر بنشوة الفخر والنصر، ليس هناك محب يحلم بأن تراه حبيبته على أروع من هذه الصورة الفريدة . . لكنى استغفرت الله من هذه الأنانية وهذا الغرور، وقال الزعيم:

- «لن تجدوا فى أرضنا غير المحبة والسلام . . ويسعدنا أن نقدم لكم كل المعونات الممكنة باسم الوطن الأم . . ويسعدنا أن يشترك معنا جنودكم فى بناء مسجد صغير . . » .

ورد القائد فى سعادة :

- «نحن نبنى ولا نهدم ، ونحارب من أجل الإبقاء على المعانى العريقة بين أبناء شعبنا ، والتى أراد العدو الأكبر أن ينسفها نسفًا . . » .

ودخلنا القرية مطمئنين هانئين ، وبقينا فيها فترة للاستجمام وجمع المعلومات ، وإعداد العدة لمواصلة الزحف نحو «إينوغو» عاصة «بيافرا» المزعومة .

ها نحن معًا يا «سعيدة» . . يا حبيبة القلب ، وشريكة أيام النضال ، نلتقى معًا من جديد ، انزاحت القيود ، وتراخت قبضة الطغاة يا حبيبتى ، وها هم أهلك وسكان بلدتك يحيطوننا بالأهازيج الحلوة الندية ، ويبعثرون فى طريقنا الورود والزهور ، وها هو أبوك يبتسم ابتسامته الحلوة النابعة من القلب ، وها هن نسوة القرية يصنعن لك من الأوراق الخضراء وأفرع الورود تاجًا يليق بمقامك ، ويجعلون منك فتاتهم الأولى النبيلة ، التى حذرتهم من مغبة المصير ، ووجهتهم إلى الطريق السليم ، وشرحت لهم أسباب الفتنة . . ها نحن نلتقى يا حبيبتى ، ووراءنا طريق طويل من

الأشواك والدماء، وأمامنا طريق آخر طويل لنبلغ الغاية . . طريق لا شك تحفه المكاره الحربية، والصراعات الفكرية، والأفاعى الماكرة . . لكننا بعون الله سننتصر . . قلب المؤمن يا حبيبتى تعنو له الجبال، وتطأطئ له القمم، وينطلق فى ظل الله لا يخاف وعداً أو وعيداً . .

أى سعيدة . . لا بد أن أسافر . . وأكمل الرحلة المقدسة حتى «إينوغو» . . كى نطهر الأرض من الرجس . . وسأعود إليك يا حبيبتى مع الفجر الندى الساحر، المرطب بالحب والأحلام والذكريات الشجية . .

وذهلت إذ سمعت سعيدة تقول :

- «لن تسافر وحدك» .

- «كيف؟» .

- «سآتى معك، أضمد الجرحى، وأشارك معكم فى معركة الوحدة والتوحيد . . ستأتى معى فتيات كثيرات . .

لن نكون عبئًا عليكم . . لقد نظمت كل شىء . . » .

قلت فى حيرة :

- «لا بد من موافقة القائد . . » .

ضحكت ضحكتها الحلوة الآسرة، وقالت:

- «لقد وافق، واشترط على شرطًا».

- «ما هو؟».

قالت وهى تحرك سبابتها فى تحذير لطيف محبب:

- «الزواج بعد انتهاء الحرب..».

قلت وقلبى يدق:

- «هذا إذ لم تطحننا الحرب بأحجارها التى لا ترحم..».

ابتسمت فى انتعاش، وقالت:

- «الله معنا..».



٢٢

- « . . «إينوغـو» يا ابنة العم الجاحدة . . لا تضحكوا منى . . لأن العاصمة «إينوغو» التى تمردت وأعلنت الانفصال، وهى فى نظرى كابنة العم التى خانت تقاليد الأسرة الواحدة، وسقطت فى حبال الخديعة، وباعت نفسها للشيطان . . ها هى القوات الاتحادية النيجيرية تحاصرك يا «إينوغو»، وعمالقة الشمال- أبناء العم- يدقون أبوابك، من كل صوب . . الشيطان يضحك منك، ويسخر من سذاجتك يا من استجبت لتحريضه، وأرقت الدماء، وتسببت فى آلاف الضحايا . . افتحى ذراعيك أيتها الحمقاء المتمردة . . فإن أبناء العم لن يسفكوا دمك باسم الشرف والفضيلة، افتحى ذراعيك وعودى إلى السواعد الفتية، والأحضان السمراء الدافئة، التى تنبض بالحب والأمل، وتؤمن بالصفح والغفران وجمع الشمل . . لا تتلفتى وراءك يا «إينوغو» فقد هرب الشيطان وتركك وحدك تعانين مرارة الندم، وقسوة أنين الضمير . . عودى يا ابنة العم الشاردة . . فقد بطل السحر، وسقط كل ادعاء

وزيف.. كوني شجاعة واعترفي بالخطأ كي تبدئي حياة جديدة نظيفة، فقد هرب «أوجوكو» الذى آثر النعرات القبلية، وخدعك بمعسول الكلام، وضحك عليك بالشعارات الكاذبة.. ماتت الأوهام، وها أنت تواجهين الحقيقة الأليمة.. الأيبو واليوروبا والهوسا وغيرهم، كلهم أبناء أم واحدة هى نيجيريا، صهرتهم الآلام والنضال والذكريات والانتصارات فى بوتقة واحدة.. ولم تعد بلادنا ساحلاً للعبيد.. هى الآن أرض الأحرار.. لا تفزعنى يا «إينوغو» فإن ما حدث كان مجرد نوبة من نوبات الصرع أو الهستيريا، والمرضى قد يفعلون أشياء بدون إرادتهم، وما كان الحقد طريقًا للشفاء، ولا كان الانفصال أو الانعزال وسيلة للقوة والمنعة».

لهذه الكلمات كنت أناجى نفسي، وأحدث كل من ألقى فى شوارع «إينوغو» عاصمة جمهورية «بيافرا» المزعومة، كنت أهمس فى حنان والدموع تغرق خدى، وأنا أرى جموع المحاربين التعساء يلقون السلاح فى استسلام، وقد هدّهم الصراع، وأرهقهم طول السهر والعناء، كانت نظراتهم مشحونة بالألم، يبللها الندم والأسف، وكان رجالنا المنتصرون يمضون فى هدوء ويسيطرون على المواقع دون تشفى، وعاد الزمن والهدوء بعد صراع طويل دام.. والغريب أننى كنت أسمع وكالات الأنباء العالمية فى الإذاعات، وأقرأ تعليقاتها فى الصحف، وهى تتكلم وتكتب عن الضحايا واللاجئين والجائعين والمضطهدين فى الإقليم الشرقى فى نيجيريا..

هؤلاء الحمقى يكذبون. . والأغرب من ذلك أنه قامت دعوة «إنسانية»- هكذا زعموا- لجمع التبرعات، وإرسال المعونات الغذائية والدوائية لتعساء الأيبو. . يا إلهى. . إنهم يكذبون. . ولكنى سعدت إذ سمعت «يعقوب جوون» قائد نيجيريا الاتحادية يعلن على الملأ أنه يرفض تلك المعونات؛ لأن نيجيريا المتحدة ليست فى حاجة إليها. . وأن الذين يتحدثون عن المآسى الموهومة ما هم إلا حفنة من الاستعماريين والإسرائيليين ومؤسسات التبشير المتعصبة وإن كل ما يروجون لا أساس له من الصحة. .

آه. . الذين رقصوا بالأمس ابتهاجًا بموت أحمدو بيللو، وطربوا لدماء الشرفاء أثناء تمرد «شوكوما» وحكم «إيرونسى» وحمامات الدم التى أراقها «أرجوكو». . الذين رقصوا بالأمس أراهم يبكون غيظًا أم ندمًا أم خوفًا من هول المصير؟

لقد عاد الصفاء والهدوء والسلام برغم كل ما حدث، وخرج أبناء نيجيريا فى الشمال والجنوب. . فى الشرق والغرب يغنون ويرقصون ويمرحون. . ينشدون للسلام والوحدة والحرية أناشيد شجية تأخذ بمجامع القلوب، وتبهر الآذان والعيون!!.

- «أين أنت يا عبد الرحيم».

وأخذت أتجول فى أنحاء «إينوغو». . الناس يأكلون فى سعادة

وكأنما انجاب عنهم همٌّ ثقيل، وانزاحت عن كواهلهم أحزان طال بقاؤها، وأجراس الكنائس تدق، والمآذن ينطلق منها الصوت الحبيب «الله أكبر . . الله أكبر . . »، ووجدت عبد الرحيم خارجًا من أحد المساجد الصغيرة، وغمغم:

- «هل انتهينا؟».

قلت وأنا أنظر صوب السماء الصافية التى يغمرها الضياء بعد الظهر:

- «تلك هى البداية».

- «إذا كانت هذه هى البداية يا «عثمان أمينو» فكيف تكون المسيرة الحقيقة إذن؟».

- «ما أكثر ما يحتشد فى الطريق من عقبات . . لك أن تسألنى ما هو النصر الذى أريد؟ أجل . . أن تضىء شعلة الإيمان قلب الأم الكبير . . أن تهتف نيجيريا لله وحده . . هذا هو السلام الحقيقى . . والنصر الكامل الذى علمنيه محمد ﷺ . . الإيمان . . الحرية والإخلاص والسعادة . .

حيث لا يستعبد بشر بشرًا، وحيث تتحطم الأصنام الآدمية وحيث يصبح الناس إخوة بمعنى الكلمة».

ومضينا فى شتى الطرقات نبحث عن «سعيدة».

إنها غارقة وسط الجرحى والدماء والآهات الملتاعة . . هتفت :

- «سعيدة» .

نظرت إلىّ فى عجل ، وقالت :

- «لا وقت لدى الآن . . » .

- «لكنى أريدك لأمر مهم يا سعيدة» .

شعرت بشىء من الخجل ، لكنها عاجلتنى قائلة :

- «احمل هذا الرجل معى إلى ذلك المكان . . إنه يحتاج إلى عملية بتر الآن . . » .

كانت تتكلم وتشير إلى غرفة تبعد عنا حوالى عشرين مترًا ، ووجدتنى أنهمك معها فى العمل لبضع ساعات دون أن أشعر بمرور الوقت . . المأساة هنا . . النظر - مجرد النظر - إلى وجوه هؤلاء التعساء يجسم مأساة الحرب ، يجعل منها شيئًا بشعًا مروعًا ، والاستغاثات الضارعة تزرع فى قلبى حزنًا أبديًا ، والأيدى الشاحبة النحيلة الراعشة ، وهى تمتد إلىّ فى توسل تُفجِّرُ من عينى الدموع ، ذلك مشهد لن ينمحى من ذاكرتى طول حياتى . .

وقبيل منتصف الليل نظرت إلى سعيدة بعينين يخالطهما النعاس ، وتثاؤباوتها تتوالى ، وهمست فى دهشة :

- «ماذا تريد؟».

- «ألا تعرفين؟».

- «كل ما أعرفه أن لدى عملاً هنا يستغرق حوالى الشهر . . ».

- «وبعدها؟».

نظرت إلىّ ووجهها يشرق بالسعادة:

- «وبعدها يا عثمان انطلق فى أى اتجاه . . وستجدنى وراءك . . حتى آخر الدنيا . . ».

وأغمضت عينيها وهى تتكئ على منضدة خشبية معفرة، وقالت وهى فى شبه حلم:

- «سيكون كل شىء على ما يرام . . سيغنى لنا عبد الرحيم أغنيته الحلوة . . وسنقيم أفراحًا تستمر أسبوعًا فى قريتنا الحبيبة . . لقد وعدنى الزعيم، كما وعدنى أبى بأنهما سيباركان زواجنا . عثمان . . أيها الحبيب الغالى . .

سيكون أبناؤنا أسعد حال منا . . وسندعو إلى الله فى كل بقعة تطؤها أقدمنا».

« . . «سعيدة وعثمان» رمز نيجيريا الواحدة . . وسيدعو لنا الشيخ عبد الله بالبركة والسعادة . . هذا رجل صالح . . ».

وصمتت عن الكلام ، وانبعثت أنفاسها هادئة رتيبة . . فتناولت ملاءة بيضاء نظيفة ، وأسبلتها عليها . . وجلست إلى جوارها وهى نائمة أنظر إلى وجهها الملائكى . . وبقيت متيقظًا حتى الصباح . . نحن الدعاة إلى الله . .

طريقنا الحب الطاهر بكل ألوانه الباهرة . .

غذاؤنا الأمل . .

وطريقنا يمتد إلى بعيد . . لا يقطعه الموت ، أو تطمسه العواطف . .

فالركب السائر إلى الله فى صدق لا يضل الطريق . .

نجيب الكيلانى